السَيِّد بُراغ

رواية

إبراهيم إدريس

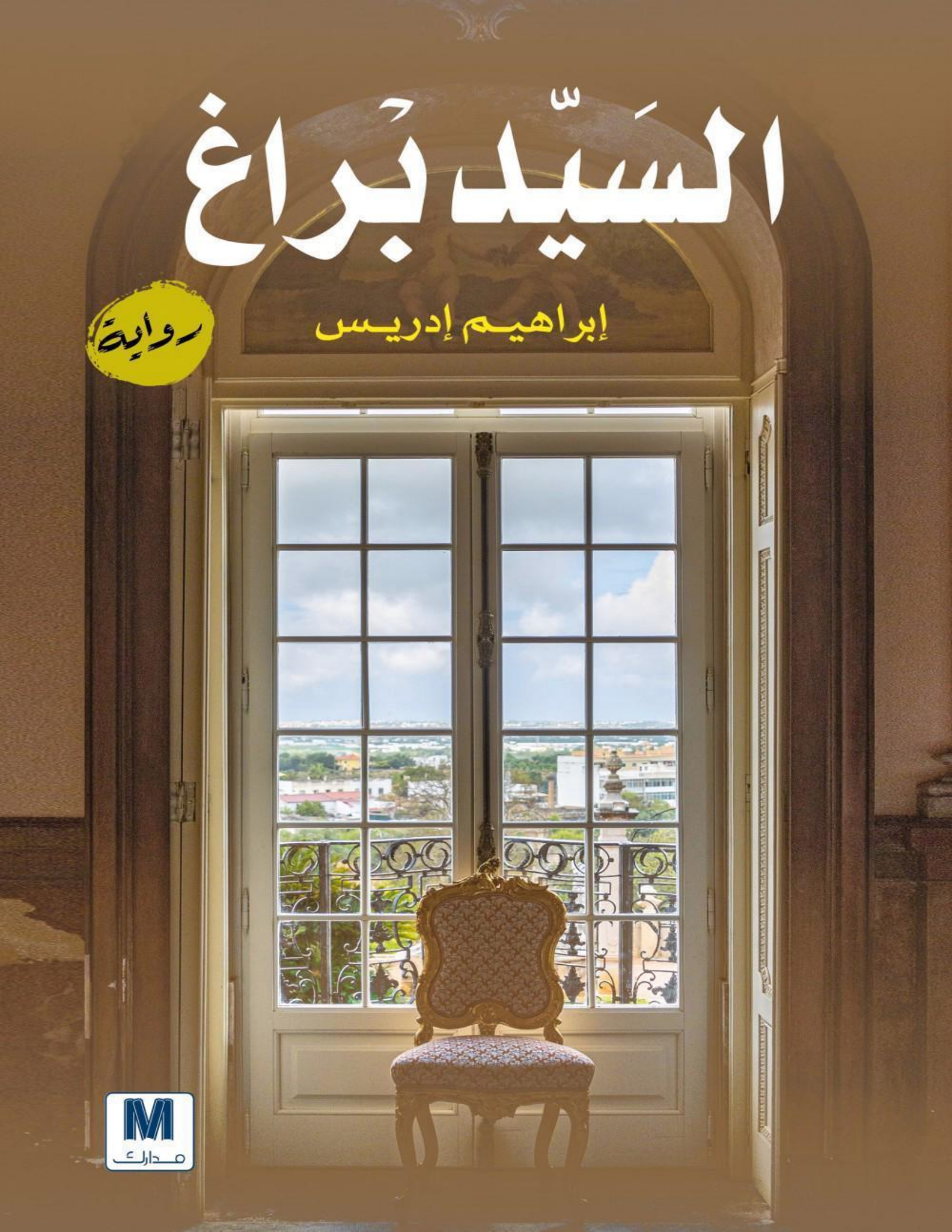

مدارك

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

السَيّد بْـــراغ

روايـــــة

ردمك:9786144295830

إبراهيـم إدريـس

"إلّا أن في الروايات نوعًا من أنواعِ العبودية، إذ أنك تجد نفسك مضطرًا لإنهاء ما بدأتَ طوعًا لا كراهية، سائـــرًا في طريقٍ رسمها لك كاتبٌ ما، لا مهرب لك من معرفة مصير ما خطّه ذاك القلم لأحد أبطاله، والذي بات أحد أهم الشخصيات في خيالك، لا قدرة لك على مسح دموع الحزن ولا المشاركة في صناعة دموع الفرح، درعك العجز ورمحك الأمل، هذه هي كل ما تمتلك من الأسلحة النفسية لتواجه بها نـزوات ذاك الكاتب الغامض"

إبراهيـــــم إدريـــــــس

مقتطفات من الورد

إلى لارا إبراهيـــم

المشهد الأول

دَعْوَة خارج الحُسْبان

رغم دُجنةِ سماء تلك الليلة، وجدها بيتر الأكثر إشراقًا في تاريخ مدينة براغ، إذ حصل لتوّه فيها ضمن أُمسيةٍ احتفاليةٍ مَهيبة على لقب "صَحَفيّ العام"، اللقب الذي استحدثته المدينة مؤخرًا، على غِرار مجموعة الألقاب التي دأبت العاصمة التشيكية على تناقلها ما بين كبار رجالاتها طيلة العشرة أعوام المنصرمة؛ سياسي العام، اقتصادي العام، كاتب العام ورياضيّ العام.

وكان قد كُرِّم برفقة بيتر كلٌّ من السادة؛ ياروسلاف عن فئة السياسة، فانغر عن فئة الاقتصاد، روزسكي عن فئة الكتابة والسَيّدة ستريكوفا عن فئة الرياضة.

وإثر تكريمه ذاك التكريم الرفيع؛ المتمثل بحصوله على النسخة الأولى من لقب "صحفي العام" - اللقب الذي بات منذ تلك الليلة الأكثر أهميّة بالنسبة لصحفيّي تشيك - رغب بيتر بتصفية ذهنه والتفرّغ التام للسعادة التي هطلت عليه لتوّها، ولكن حدث ما منعه من ذلك؛ إذ شعر بنوع ما من الحسد، ذاك النوع الذي يتعاظم أثره في النفس مع كل محاولةٍ من محاولات المرء للتحكم به.

كانت مشكلة بيتر مُنحصرة في السَيّد روزيسكي، رفيقه - نوعًا ما - في حفل التكريم، الكاتب الغامض الذي استحوذ على لقب "كاتب العام" منذ يوم استحداثه، تمامًا كما فعل مع قلوب التشيكيين منذ إصداره لروايته الأولى قبل ما يزيد عن الخمسين عامًا، محققًا بذلك إنجازًا فاق كل التعابير؛ عشرة ألقاب في عشرة أعوام! بينما في المقابل لم يتمكن أيّ من أصحاب الألقاب التشيكيّة من تكرار إنجازهم بالحصول ولا حتى على مُجرد ترشيحٍ للقبٍ ثان.

وفي حقيقة الأمر، لم يكن اللقب العاشر للسيّد روزيسكي وحده المسبب لإذكاء حسد بيتر إلى ذاك الحد، بل كان إعلان اللجنة المنظمة للاحتفال عن استبدال لقب كاتب العام - الذي بات مُكررًا حتى السأم بالنسبة للتشيكيّين - بلقبٍ جديد طُرح ليلتها للمرة الأولى في تاريخ الجمهورية، بصيغة مفتوحة، مطلقة، غير مرتبطة بعام، ليليق بأعظم رجالات براغ الذي يستحقه. ومن غيره! "روزيسكي" التشيكي الذي بات يُعرف منذ تلك الليلة بلقبه الجديد "السَيّد براغ".

وإمعانًا في تكريمه، ارتأت اللجنة بشكل بدا وكأنه ارتجالي، هكذا وأمام الملأ، وبدون أدنى تردد، بأن يتجاوز اللقب السَيّد روزيسكي بحد ذاته، ليشمل معه قرينته السَيّدة مارتينا روزيسكي، لتبيت تُعرف هي الأخرى منذ تلك الليلة بلقبها الجديد "السَيّدة براغ".

وفي قرابة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ومع انتهاء حفل التكريم المهيب، توجه بيتر الـمُنتشي بما حققه إلى منزله الكائن جهة الشرق من نهر فلتافا، بالقرب من الجسر الحجري العائد للقرن الرابع عشر - المعروف باسم جسر كارل - وبينما كان في طريقه، أخذ بيتر يعمل على دفع نفسه للإفراط بالتفاؤل في مستقبله المهنيّ، والطمع في ما سيحققه من كل بد مع بداية شهر أيلول التي حلّت لتوّها، الشهر الأكثر تفاؤلًا بالنسبة له ولعائلته.

ولسوء حظّه، كان طريق بيتر إلى منزله شبه خالٍ من المارّة، لدرجة سمحت لظل السَيّد براغ بالاعتلاء على منصة أفكاره المعروفة "بانتقائيّتها الـمُفرطة"، لينّوه من فوقها ببراعة للتشابه ما بين طريق بيتر الخالي من المارّة وطُرق السَيّد روزيسكي الخالية من المنافسة نحو ألقابه العشرة.

استاء بيتر من هذيانه ذاك لدرجةٍ دفعته لتشغيل المذياع الذي لا يُطيق، آملًا في ذلك العثور على موسيقاه الكلاسيكية المفضلة عبر أثير ما، في محاولة ساذجةٍ منه لنسيان السَيّد وألقابه العشرة، إلّا أن ما عثر عليه كان مغايرًا لما قصد، فكم تضاعف استياؤه عندما وجد أحاديث الإذاعات كلها متمحورة حول أمر واحد؛ السَيّد براغ. دون حتى أدنى تطرق لمن تكرّموا معه في ذات الليلة منذ أقل من ساعة!

أغلق بيتر المذياع بغضبٍ مُقسِمًا بعدم تشغيله مرةً أخرى حتى وإن حصل بنفسه على لقب السَيّد براغ يومًا ما، ثم قاد عربته بتهوّر بالغ فيه أوصله سريعًا إلى الشارع رقم 48 حيث يسكن. تنهّد أوله ثم تابع طريقه فيه بهدوء حتى وصل المبنى رقم 67 حيث شقته المُطلة على الواجهة الغربية من نهر فلتافا في الطابق الثالث.

وفور وصوله، ركن بيتر عربته بشياكته المعتادة، ثم رَتَبَ على مقودها بلطف ونزل، وأثناء نزوله تنبّه على إحداهنّ تركض مبتعدةً بشكلٍ مُريب، كانت قد خرجت لتوّها من المبنى حيث يقيم.

أثارت تلك الهاربة الريبة في نفس صحفي العام للحظاتٍ أنهاها بقراره الصارم بعدم المبالاة، "هذا ما كان ينقصني!" قال في سرّه، ثم صعد إلى شقته بتمهّل استمرّ على وتيرته حتى فوجئ ببابها مُشَرّعًا على مصراعيه!

كان المشهد مُريبًا للغاية، لدرجة أجبرت قلب بيتر على الخفقان كما لم يخفق من قبل قط، خفق بشدّة، وهو من اعتاد الاعتراف للنساء ممن هنّ حوله بأن قلبه الكبير لا يخفق أبدًا، "لا بد من أنها عملية سطو"، قال بيتر في سرّه مُحللًا، "حقًا هذا ما كان ينقصني!" أضاف مُعبرًا عن استيائه ليتذكر على الفور تلك الهاربة لتوّها، "نعم إنها هي!" أضاف مؤكدًا حلّ القضيّة.

أخذ بيتر يتهيأ للاقتراب من بوابة بيته المُنتَهكة، والأمل يعزّيه بكونه سيدخل بيته خلال اللحظات القليلة القادمة ليجد نفسه وحيدًا في الداخل كما العادة، وبأن السارقة الهاربة الحمقاء تستلذ وتنعم بمسروقاتها في مكان ما، بعدما تركت من كل بد ما سيدلّ - لاحقًا - على شخصها بسهولة ويسر.

وبشكل فوري، وإثر أول خطوة خطاها بهدوءٍ انقطع نظيره، تبيّن لبيتر زيف ظنونه، إذ تفطّن مع تقدّمه المُتسارع لأنوار صالته المُضاءة على بكرة أبيها، "لا وجود للسرقة ليكون هنالك من وجود للسارقة" استنتج في سرّه. "لا بد من أنها مفاجأة ما"، أضاف رغم خيبته بشُحّ صداقاته.

استرجل، دَخَل شقته دخول الفاتحين، ليجد في استقباله حشدًا مهيبًا من باقات الورد الأحمر متنشرةً في الأرجاء، وكذلك كانت الشموع من ذات اللون، "عيد العشاق في آخر أيام آب!" أضاف الصحفي في سرّه ضاحكًا يستهزىء رُغم كل ما ملأ قلبه من توتر واضطراب.

وما كانت تلك المفاجأة لتحصل على العلامة الكاملة دون تضمّنها لبند الطعام الذي اكتسحت أصنافه مائدة بيتر حتى أتخمتها، ولثرائها الفريد؛ "كَلِصْ" أغلق بيتر باب شقته على نفسه رافضًا فكرة مشاركة عشائه مع أحد، وترك زمام أمره لمعدته المِقدامة التي ساقته بيسرٍ لروائح روائع الأطعمة المنبثقة من مائدته.

عَبَر صحفي العام طريقه المورّد صوب مائدته المُترفة، كان منجذبًا إليها أيما انجذاب، مُنشرح القلب ومُنبسط الأسارير لدرجةٍ أنسته "مؤقتًا" أمر مُعدّها وما هو أهم؛ سبب إعدادها! مرت بضع لحظات تقلّبت أثنائها عينا بيتر - برفقة معدته - بين أصناف الأطعمة، "ما دعوى هذا كله!" تساءل في سرّه مُستدركًا، وكأنه افتضح أمر تساؤلنا!

وبأناقته المعتادة، ورغم كمية الغموض الهائل المحيط بحيثيات مائدته، أخذ بيتر يسحب أكثر مقاعدها استراتيجيةً ببطء شديد. وأثناء ذلك أمْسَك ليسأل سقف وجدران المكان: "حقًا، ما دعوى هذا كله؟" وكما يعلم مُسبقًا لم يجبه أحد، تابع بيتر سحب مقعده ثم جلس، عقله يخفق بالحيرة الشرسة ومعدته تنبض بالجوع الزائف.

آمين، أنهى بيتر دعاءه سريعًا ونظر أمامه، صوب الإناء الذي يُفترض منه ملئه، ليُباغَت على حين غرّة بما أذهله حتى الثمالة! لا، لم تكن الورود ولا الشموع ولا المأكولات هذه المرّة، بل كان تواجد الردّ المتعلّق بالتساؤل الذي ورد لعقله منذ برهة. هكذا، بين يديه مباشرة، بشكل صارخ، في قعر الإناء الذي كان من المفترض خلّوه من كل شيء بانتظار الطعام!

نعم، كان الردّ يركد بسكونٍ في قعر الإناء الماثل بين يديّ صحفي العام، على هيئة ظرفٍ أسودٍ صغيرٍ لامعٍ مختومٍ بالشمع الأحمر، بختمٍ أقرب ما تكون هيئته هيئة عنكبوت. قبض

بيتر على الظرف بيده، ثم قام بتقلّيبه بين أصابعه بمهارة لترتدّ إلى ذهنه هيئة تلك الهاربة، "لا بد وأنها هي!" قال في سرّه قاطعًا سلسال شكوكه المستطيرة، مُجنّبًا بذلك نفسه الوقوع في فخ استعراض الاحتمالات المتشعبة، الاستعراض الذي لن يُجدي شيئًا سوى كبح شهيته الجامحة.

تمالك بيتر فضوله بجَلاده وأودع ظرفه الأسود رصيف الانتظار، وأخذ يملأ إناءه حد التخمة ثم ملعقته حد الفيضان، وجعل يسوقها لفمه بتجبّر. وقبيل ابتلاعها بلحظات، سقطت. لا، بل أسقطها بيتر من حساباته قبل أن يسقطها من شِماله، لينقضّ على الظرف الأسود بكامل همجيّته غير المسبوقة يفتحه! وعندما فعل، وجد في انتظاره بطاقة دعوة ذات لون أسود، أنيقة دونما تكّلف ومُوقّعة بخطٍ أحمر جميل باسم "مكتب السَيّد براغ"، دُوّن فيها:

"بيتر تشيك؛ بناءًا على قرار "السَيّد براغ" الكريم بعقد اللقاء الأول والأخير له مع الصحافة ككاتب، وبناءًا على ما تقدّم لدينا من طلباتٍ عديدةٍ مثّلت صحافيّي العالم. نودّ إعلامك بأنه قد تمت الموافقة على منحك الفرصة النبيلة لتملأ دور الصحفي في اللقاء."

- المكان: منزل السَيّد براغ؛ المعروف باسم قصر ليختنشتاين.
- الزمان: الساعة الثامنة من مساء الأول من أيلول.

وإزاء ما قرأه، فقد صحفي العام إحساسه - المرهف بحكم العادة - بكل ما حوله ليجد نفسه كرائد فضاء طليقٍ تاهت عنه مركبته، ورغم ذلك تساءل إن كان حقًا ذاك كل ما احتوته بطاقة الدعوة! عبرت بضع لحظات تائهة من حياة بيتر دون حراك فكري، ما أحسبها كانت لتنتهي لولا أن لمح بطرف عينه بطاقةً ثانيةً مرفقةً مع بطاقة الدعوة. قرأها بحماس أقل فوجد فيها:

- 19:50 تصل عربة ليموزين بيضاء حيث المبنى رقم 67

- 19:53 تنطلق العربة باتجاه قصر ليختنشتاين
- 20:00 تُفتح بوابة قصر ليختنشتاين لمدةٍ أقصاها دقيقة واحدة
- لا حضور دون أبهى حلّة رسمية ممكنة، مجرّدًا من كل أنواع الإلكترونيات، وكذلك من ساعة اليد.

"أتراه تنتظرني المزيد من المفاجآت في يومي العجيب هذا؟" تساءل في سرّه يائسًا أشد اليأس. عمّ السكون المكان بعض الوقت إلى أن انتفض بيتر مُلقيًّا ما في يمينه من محتويات الظرف، وبينما كانت تتناثر في الهواء ندم، ندم بيتر على فعلته أشد الندم، ندم لدرجةٍ جعلته يُسقِط نفسه خلفها لينقذها من براثن الإهانة الـمُتَضَمَّنة في فكرة وصولها للأرض. ولبراعته المألوفة نجح في ذلك، ثم أخذ يتلفّت من حوله كصعلوك خشية وجود من يراه، أو بالأحرى يراقبه!

ومع انقضاء زوبعة فعلته الوحشية مع مكنونات الظرف الذي تلقّاه، استلّ بيتر سيجاره الدومينيكاني - الذي يعدّ أحدث هدية تلقاها في حياته - من مكان عرضه في الصالة، وخرج به للشرفة الـمُطلة على الضفّة الغربية لنهر فلتافا حيث شُيّد قصر ليختنشتاين، وهناك من على الشرفة، أشعل بيتر سيجاره وأخذ يدخّنه مُمعنًا النظر في القصر، المكان حيث عليه دخوله خلال يومه الذي بدا له طويلًا منذ أوله.

وأثناء تدخّينه لسيجاره، وأثناء مناظرته لقصر ليختنشتاين - المبنى الذي أُستخدم قديمًا لمصلحة مكتب البريد ثم لمصلحة أكاديمية الفنون المسرحية، إلى أن انتهى به المطاف ليجعل منه السَيّد براغ مجرد بيت فور استحواذه عليه - أخذ بيتر يتباحث مع نفسه أمر الدعوة التي قرأها لتوّه.

- يدعوني بشكل مباشر، ببيتر تشيك، دون تطرّقه لأبسط الألقاب الـمُستهلكة في أخسّ الخطابات الرسمية أو شبه الرسمية؛ كحضرة، أو الصحفي، أو السَيّد. وفي المقابل يدعو نفسه ببالغ الغرور بلقبه الجديد "السَيّد براغ"!

أطلق بيتر زفيرًا ملوّثاً،ثم تابع بشهيقٍ جديد من سيجاره وحدّث نفسه:

- ألا تعني دعوته لنفسه بالسَيّد براغ بأن بطاقة الدعوة كتبت للتوّ! فور حصوله على اللقب؟

سكت برهة ثم أضاف:

- ألا يدلّ ذلك على تعمّد دعوته لي بشكل مجرّد! ألم يكن بإمكانه مخاطبتي بصحفي العام إن أراد ذلك! أليس كذلك؟ وتابع قائلًا: *بناءًا على ما تقدّم من طلباتٍ عديدةٍ مثّلت صحافيّي العالم*. ولكنني وحسب علمي لم أتقدّم بشيء! والأسوأ من ذلك قوله: *تمت الموافقة على منحك الفرصة النبيلة لتملأ دور الصحفي*. أليست قاسية تلك الكلمات التي استخدمها: موافقة، منحة، فرصة، نبيلة، تملأ!

تنهد بضيق ثم أضاف:

- ويَشترط عليّ أبهى حلّة رسمية ممكنة، ومجرّدًا من الإلكترونيات وحتى من ساعة اليد! ويمنحني ثلاث دقائق لركوب عربته، وكأقصى حد سبعاً منها ليتقاسمها كل من سائق الليموزين وشوارع المدينة من أجل السماح لي بدخول قصره! نعم إنه يتعمدّ إهانتي أليس كذلك؟

أطلق بيتر زفيرًا وكأنه الأخير له، ثم تابع بعينيّ طامع وابتسامة منتقم:

- وفي مقابل كل ذلك، إنها دعوة للقائه الأول والأخير مع الصحافة على حد قوله، ألا يستحق الأمر تحمّل كل ذلك؟

بشكل مفاجئ شعر بيتر بضيقٍ لا يُحتمل في صدره، لمح على إثره دخانًا صادرًا عن شماله، نظر صوبه - صوب الدخان - وإذ به يُفاجأ بسيجاره الدومينيكاني مشتعلًا بين أصابعه، ألقاه مدهوشًا وتمتم بانفعال يُحدّث نفسه: "أنا! أنا لا أدخّن! لا أدخّن!" ثم ضَحِكَ، ضَحِكَ ضَحِكًا لقيطًا انهار له أرضًا وهو يقول: "يا لها من بداية لشهر أيلول!"

وعندما اكتفى، أو بالأحرى انتهى، نهض بيتر بوجهٍ جادٍ وأخذ يحملق في قصر ليختنشتاين ثم قال:

- ومن منّا من لا يحلم بزيارة الضفة الغربية للنهر!

المشهد الثاني

تِلك التي لا بُدّ مِنها

يا لها من تزامنات تلك التي خصّت بيتر يومها، إذ أشرقت عليه شمس براغ للمرة الأولى في حياته وهو يقظٌ في شرفته في العراء، في صبيحة يوم لقائه مع سيّد الكتّاب التشيكيين، وفي الأول من شهر أيلول الذي يحب. ولولا أن نبّهته أشعة الشمس التي أشرقت يومها بكونه قد أمضى ليلته كلها يحدّق في قصر ليختنشتاين المَهيب لما تنبّه!

ومع إدراكه لما اقترف طوال ليلته، رفض بيتر الإيمان بكونه في أسوأ حالاته، وفي المقابل تَقَبَّل كونه ليس في أفضلها، ولكن شعوره بالإنهاك الجارف جعله يتوسوس كما لم يتوسوس من قبل قط. لذا، وليتجنّب الساعات القادمة بكامل ما فيها من خيرها قبل شرّها، حسم بيتر أمره باختصار يومه أفضل اختصار، فاستحم بأبرد ما توّفر لديه من ماء، ثم صارع قَلَقَه حتى ظفر بالخلود إلى النوم.

كالبرق، كما لم يُرِد على الإطلاق، مضت فترة نوم بيتر التي قاربت على الاثنتي عشرة ساعة، لتنتهي باستيقاظه فزعًا على صوت منبّهه، الذي حمد ربه مئة ألف مرة أنه ضبطه رغم استبعاده لفكرة نومه حتى السابعة مساءًا.

تشاءم بيتر مع إدراكه لفكرة امتلاكه أقل من ساعة قبيل موعده مع عربة الليموزين، حاول التفاؤل باعتبارها مُكافِئة لخمسين دقيقة ولكنه فشل. لذا وبشكل عجول، تناول صحفي العام وجبةً خفيفةً استهلكت من وقته عشر دقائق، ثم حلق ذقنه ونظّف أسنانه بعشر أخرى، ليترك بين يديه نصف ساعة لاختيار أبهى ما يمكنه ارتداءه ضمن الضوابط التي فرضتها عليه بطاقة الدعوة.

كالبرق مجددًا، مضت النصف ساعة على بيتر محتارًا بين أجمل أثمن قطع ثيابه، ومع اقتراب عداد دقائقه على النفاد، قرر اختيار أول ما تباهى به أمام مرآته وارتداه، ثم ركض بحذائه الجديد كالمسعور نحو أسفل بنايته حيث لمح عربة ليموزين بيضاء تصطف أمام بوابة المبنى حيث يقطن.

اقترب بيتر برزانة من عربة الليموزين متوجّهًا إلى بابها الخلفي، ومع وصوله حيث أراد، وجد نفسه مُضطرًا للانتظار دون معرفة السبب، مضت قرابة عشر ثوانٍ بنكهةٍ أطول من المعتاد، انتهت بأن فُتح الباب من تلقاء نفسه، ركب بيتر محافظًا على رزانته، ليسمع فور ركوبه صوتًا يقول له:

- إنها السابعةُ وخمسون دقيقة، أليس كذلك؟ (السائق، ضاحكًا)

- نعم، نعم إنها كذلك! (بيتر، مبتسمًا رغم توتره)

مضت قرابة الثلاث دقائق والعربة لا تبرح مكانها، "يبدو أن ثقة السائق بنفسه أمتن من ثقته بحالة طُرُق براغ!" تعجّب بيتر في سرّه، ليسمع بعدها صوت السائق الذي بدا منفعلًا نوعًا ما وهو يقول:

- ما الذي تنتظره يا هذا؟ ألن تغلق باب العربة!

أغلق بيتر باب العربة بارتباك، وتساءل في سرّه: "ما الذي يجري لي؟ أيستحق أمر مقابلة ذاك الرجل كل هذا القلق مني؟" تنبّه بيتر إلى وجود ساعة مُعلّقة أمامه، كانت دقيقة لدرجة عدّ أجزاء الثواني. "كم أتمنى عدم وصولي في الوقت المحدد"، نطق قلب بيتر رغمًا عن عقله!

أمضى صحفي العام وقته داخل العربة يراقب عدّاد الثواني المزروع أمامه دونما هدر، أحس فعليًّا بسرعته التي بدت له مُتسارعًا كدقات قلبه، ومع تمام الساعة الثامنة توقف، وتوقف معه قلبه، أو بالأحرى هذا ما شعر به بيتر، "لا لم يتوقف قلبي! عدّاد الزمن هو من

توقف"، حاول بيتر إقناع نفسه بذلك فاقتنع، ثم تذكّر إمكانيته للتنفس فتنفس بنهمٍ جعله يرى نفسه ككلب نجا لتوّه من حادثة غرق.

"كقطة" صَحَّحَ بيتر الشعور في سرّه ثم أضاف مُتهلل الوجه: "انتهى الوقت!" ليتفاجأ بباب العربة وهو يفتح لأقصى درجة ممكنة.

- ما الذي تنتظره يا هذا! دقيقتك الوحيدة في غروب ألا تغتنمها! (السائق، منفعلًا)

"بلى" أجابه بيتر في سرّه مرتبكًا، ليقفز بعد ذلك من مقعده كخيل جامح أخذ يجري بأسرع ما توصلت له توليفة جسده، ثم صعد بضع درجات أثريّة جعلته يلتقي وجهًا لوجه مع بوابة قصر ليختنشتاين التي كادت تنغلق، ودون أدنى شك في قدراته، وثب صحفي العام وثبة أكثر من مجرد طائشة مكّنته بأعجوبة من اجتياز البوابة. اجتازها كعدّاء، كأول عدّاء. رغِب بالرقص مبتهجًا بإنجازه إلّا أن صوت انغلاق البوابة من خلفه حجّمه ومنعه من ذلك.

- إنها الثامنة ودقيقة. (أحدهم، مبتسمًا)

- نعم، نعم إنها كذلك! (بيتر، مبتسمًا رغم توتره)

- إدوارد، بإمكانك دعوتي بإدوارد، كبير خدم قصر ليختنشتاين.

"ولم عليّ دعوتك!" تساءل بيتر في سرّه وهو يدقق في ملامح كبير الخدم مستغلًا الابتسامة التي جامله بها. إدوارد رجل ستّيني على أقل تقدير، قصير نوعًا ما ونحيل، صاحب أنف صغير مدبب، وعينين غائرتين زرقاوين، أما شاربه فكان أبيض متوسط الكثافة، وكذلك شعره الخفيف المصطف على جنب. كان أنيقًا للغاية، لدرجة تفوق أناقة صحفي العام بحدّ ذاته. والأهم من ذلك أنه بدا مألوفًا نوعًا ما.

بابتسامة مُرَّحِبة، أضاف إدوارد: "أرجو التكرم واللحاق بي" ثم أشار بيده إلى جهة اليمين لينطلق بعدها صوب إحدى الصالات المتصلة بالبهو مفترضًا مرافقة بيتر له. ولدى وصوله لمبتغاه تبيّن لإدوارد كونه وحيدًا. فما كان منه إلّا أن عاود أدراجه من حيث جاء ليجد ضيف القصر وهو يُحملق في أدق تفاصيل البهو.

في واقع الأمر، كان كل الحق مع بيتر في ذلك، فمن منّا من لا يرغب بالحملقة في بهو القصر العائد لبداية القرن السادس عشر للميلاد، وخصوصًا عندما يكون أول المباني ذات طراز العمارة الباروكية في مدينة براغ!

- أرجو التكرم واللحاق بي. (إدْوارد، مُجَدِّدًا طلبه)

- نعم، نعم، بالطبع. (بيتر، بتوتّر)

من بهو القصر الأخّاذ إلى إحدى صالاته الخلّابة الناطقة بالبياض، انتقل بيتر ليجلس حسبما أشار عليه كبير الخدم؛ على أكثر أرائِكها دَعَة من وجهة نظره. طلب كأسًا من الماء على استحياء فلُبّي على الفور ليعيش بعدها في أجواء اكتنفتها السكينة رغم الغموض المحيط في المكان.

وبعد قرابة خمس عشرة دقيقة، تقدّم نحو بيتر اثنان من العاملين في القصر، كانا يحملان معهما أوانيةً ما، كانا مكافئين لكبير الخدم في أناقته، وأعمارهما مقاربة لأعمار أبنائه، قدّم أحدهما كوبًا من الشاي ثم أفسح المجال لزميله ليقدّم طبقًا من البسكويت، وقبيل تقديمهما لما يحملان أضاف كل منهما بملامح جادّة:

- شاي دا هونغ باو، من إعداد السَيّدة سامانثا. (مُقدِّم الشاي)

- بسكويت الزبدة التقليدي، من إعداد السَيّد ألكسندر. (المُقدِّم الثاني)

ضحك بيتر بهيئة بدت مُصطنعة رغم حقيقتها، ولّدت لدى كبير الخدم غضْبة حقيقية رغم محاولته تصنّعها، ورغم مساعيه لاخفائها وصلت مشاعر غضب إدوارد لصحفي العام بشكل جليّ، لدرجةٍ جعلته يعمل على تبديد الأجواء المسمومة التي سببها، فقال:

- أقصد بأنه ما كان ينقصنا إلّا ذكر اسم مخترع البسكويت وتاريخ اختراعه! (بيتر، ممازحًا بشكل مصطنع)

- شارلز هـيدبرت، عام 1903 للميلاد. (إدْوارد، بدون ملامح)

تفاجأ بيتر من الإجابة السريعة القاطعة التي سمعها، أضاف خجلًا:

- أعتذر، أعتذر منكم جميعًا! (بيتر، مشيرًا بيديه بالاعتذار للجميع)

- يُعرف عن السَيّد براغ بأنه لا يستقبل طعامًا ولا شرابًا دون توّضيح ماهيته وذكر اسم مُعدّه. (إدْوارد، مُجددًا بدون ملامح)

- وما نفع ذلك؟ (بيتر)

- ليعلم إن كان مزاجه على وفاق مع ما يُقدّم له أم لا؟ (إدْوارد)

- واسم مُعدّه؟ لذات السبب؟ (بيتر، مع الشعور بالقليل من الخبث)

- كي يَشْكُرا! (صوت نسائي مجهول المصدر قرب باب الصالة)

ومع تبدد الصوت، ظهرت صاحبته لتنسف على الفور الغموض الذي كاد يكتنف بيتر. كمَلِكَة، دخلت الصالة بوقار من الطراز الرفيع، ليقوم الثلاثة العاملون في القصر بتحيّتها بضمير حيّ، أتبع ذلك أن عرّف عنها كبير الخدم بقوله:

- السَيّدة براغ.

وفور معرفته لشخصها نهض بيتر لا إراديًّا ليُرحّب بها بانحناءة عميقة، فردّت عليه الترحيب بابتسامة رفيعة سامية من أفخم ما يكون. ثم أضافت:

- من لا يشكر الناس لا يُشكَر أبدًا.

كضحية! تفحصّت السَيّدة براغ ضيف قصرها بوافر الاهتمام من أعلى رأسه حتى نعل حذائه، وأطالت في ذلك، وبدوره حاول صحفي العام تقليدها رغم خجله من الطريقة التي عملت بها على تفحّصه، وخلال الوقت الذي أنهت به دراستها له، لم يتوصّل بيتر سوى لكونها ترتدي السواد كأرملة؛ وشاح مخرّم للرأس، ثوب طويل، وحذاء، وكلها سوداء.

تبلغ السَيّدة مارتينا روزسكي من العمر سبعة وسبعين عامًا، ذات عينين لامعتين بلونٍ بنيّ مائل للخضرة، أنفها مرسوم برقّة، وفمها واسع بحق، نحيلة بشكل مبالغ فيه وطويلة للغاية بالنسبة لنساء التشيك، وربما لرجالها أيضًا.

في فترة صباها، كانت السَيّدة روزسكي الأجمل دون منازعة في منطقة ستاري ميستو، حيث قطنت مع عائلتها منذ يوم ميلادها حتى يوم زفافها من السَيّد توماس. ورغم السنوات العديدة المديدة التي تقلّبت على بشرتها، تمكنت مارتينا من الحفاظ على جمالٍ كافٍ ليقال عنها رائعة "نسبيًّا" بغض النظر عن عمرها.

"ولكنني لست السَيّد توماس!" أضاف بيتر مبتسمًا ببلاهة قاصدًا دعوة السَيّدة مارتينا لمحاورته، وفي المقابل شعرت هي بسوء اختياره كصحفي ليقابل زوجها. "بالطبع، بالطبع لست كذلك!" أضافت السَيّدة بشفقة زادت من شعور بيتر بعدم الارتياح الذي لازمه منذ عودته من حفل تكريمه أمس.

"الساعة! أظنني تأخرت على السَيّد توماس، أليس كذلك؟" أضاف بيتر مشيرًا بسبابته اليسرى إلى ساعة أثرية مثبتة على الحائط، قاصدًا بذلك اقتناص فرصة جديدة للانخراط بحوارٍ مع السَيّدة مارتينا. أما هي فأضافت:

- بيتر، أنت مدعوّ لزيارة القصر في تمام الساعة الثامنة والربع من مساء يوم غدٍ.

تفاجأ بيتر مما سمعه، أضاف بتعلثمٍ مع القليل من الغضب: "كيف؟ ألم يكن اتفاقنا عن اليوم!" مدّ يده إلى جيبه باحثًا عن دليل نُصرته - بطاقة الدعوة - وأثناء عرضها أمام السَيّدة أضاف: "ولكن تاريخ اليوم مدوّن على البطاقة". قاطعته السَيّدة باستهجان مصطنع قائلة:

- أتقصد أنك ترفض القدوم؟

- مَن؟ أنا! من قال ذلك؟ (بيتر، بقلق)

ضحكت السَيّدة مارتينا بأناقة محسوبة، وفي المقابل اشتعل غيظ بيتر حتى الإغماء، أضافت بشفقة:

- مُجددًا. أنت مدعو لزيارة قصر ليختنشتاين مُجددًا.

- وماذا عن اليوم؟ (بيتر، باستغراب)

- لا تقلق، لقاؤك مع السَيّد براغ في تمام الساعة الثامنة والنصف، في حال لم تمانع طبعًا. (السَيّدة براغ، مع ابتسامة مستهترة)

- لا أمانع. (بيتر، باستحياء)

- بالطبع لن تفعل. (السَيّدة براغ، بتعجرفٍ طاغٍ)

تضايق بيتر أكثر مع تعليق السَيّدة مارتينا الأخير، وفي محاولة لنسيانه نقل بيتر نظره إلى الساعة المثبتة على الحائط، ووقتها خطر على باله التناقض ما بين إلزامه التقيّد بالوقت - وقت ركوبه عربة الليموزين ووقت انطلاقها ووقت دخوله القصر - وفي المقابل يصرف سكان القصر ما يشاء لهم من الدقائق دون رقيب أو حسيب!

ولخبرتها الطويلة في الحياة ولتمرسها العميق في التعامل مع البشر، استنبطت السَيّدة مارتينا من لغة جسد ضيفها الحوار المستعر في لبّه، فقالت:

- لا يخلو أمرٌ ما من مُقدمةٍ خاصةٍ به.

- بالفعل، خصوصًا في الحوارات، فبطبيعة عملي أجد المقدمة من أهم مقاطع الحوار إن لم تكن أهمّها على الإطلاق. (بيتر، باعتزاز)

بغرور، تابعت السَيّدة مداخلتها بشكل نمّ عن ازدراء تعليق بيتر قائلة:

- وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتب السَيّد توماس؛ لكلٍ منها مُقدّمة خاصة.

اكتفى بيتر بالإيماء مشيرًا بقبول مضمون حديث السَيّدة، أما هي فلم تكن تعتزم انتظار رأيه فتابعت قائلة:

- ومقدمة لقائك بالسَيّد توماس كمقدمة كتبه.

لم يكتفِ بيتر بالصمت هذه المرة، بل وحافظ على وجهه من دون ملامح تذكر، فرَبْطُ السَيّدة لما بين مقدمة كتب السَيّد براغ ولقاء السَيّد براغ نفسه أمر غير مفهوم البتة.

ساد الصمت الصالة عدة ثوانٍ، استرد أثناءها بيتر معلومةً مهمةً كان وقد غفل عنها. أضاف معكّرًا صمت المكان:

- ولكن مقدمات كتب السَيّد براغ عبارة عن بضع صفحات فارغة!

- وكذلك مقدمة لقائك بالسَيّد توماس. بضع دقائق فارغة!

- ولكنني هنا منذ نصف ساعة! (بيتر، باستياء)

- وماذا عن مقدمة لقائك بي؟ (السَيّدة براغ، بغرور)

- نصف ساعة! (بيتر، باستياء)

- ربع ساعة لي، وربع له. (السَيّدة براغ، بغرور أعظم)

- ولكنه السَيّد براغ! (بيتر، بلؤم)

- وأنا السَيّدة! (السَيّدة براغ، بغرور أعظم بكثير)

نظرت السَيّدة مارتينا جهة إدوارد بأَنفة فانحنى احترامًا لها ثم أضاف:

- حان الوقت سيد بيتر، إنها الثامنة والنصف، السَيّد براغ في انتظارك!

"ها قد بدأنا" أضاف بيتر في سرّه بروح من يحاول فتح صفحة جديدة لتشجيع نفسه، ثم نهض وانحنى للسيّدة مارتينا مُودعًا، ولحق بإدوارد الخارج لتوّه. وقبيل تواريه عن أنظارها أضافت:

- بيترا! تذكّر من تكون، من أنت عليه، لا تنسى كونك صحفي براغ، صحفي التشيك، صحفي العام. (السَيّدة براغ، بأمل)

بكلماتها غير المتوقعة تلك، تمكنت السَيّدة براغ بذكاء من إذكاء العزيمة في صدر بيتر لدرجةٍ جعلته يشعر بحاجة مُلحّة للالتفاف صوبها وتحيتها مرة أخرى، ففعل متأثرًا، ثم استنهض صحفي العام الذي بداخله ليقابل من خلاله - لا من خلال بيتر - الكاتب الشهير توماس روزسكي.

انطلق بيتر رفقة إدوارد، إلّا أنه وبالرغم من استنهاضه لصحفي العام الذي في داخله، شعر بكونه ينساق نحو مصير مُقلق لأقصى درجة، ومحتوم أيضًا!

وفي غضون قرابة دقيقة ضجرة، عبر إدوارد بصحفي العام مجموعة من الممرات الممتدة، أحس بيتر من خلالها بكونه فأر تجاربٍ في متاهةٍ ما، "لا لست فأرًا!" علّق بيتر على

أحاسيسه ليجد نفسه بعد ذلك أمام درجٍ لولبيٍّ باذخ.

كان المشهد أمام بيتر ساكنًا حد الفزع، خاليًا من كل شيء سوى اللون الأبيض الذي يُغرق المكان وإدوارد. راود بيتر إحساس غريب بأن عليه التوقف لسبب ما فتوقف، وأطال في ذلك. أما كبير الخدم فشَعَرَ بحدوث خطب ما، فما كان منه إلّا أن ابتسم وأشار بيده إلى أولى درجات الدرج اللولبي ثم أضاف على استحياء: "من هنا". وبدأ بعدها رحلته في صعود الدرج. وحده حذاء إدوارد الجلف من تجرّأ على تعكير صفو المكان.

وبعد بضع درجات صعدها، التفت إدوارد للخلف ليجد بيتر ما يزال واجمًا في مكانه، فعلّق مدهوشًا:

- ما الذي تنتظره أيها السَيّد؟

كان بيتر قد لمح آثارًا لعدة لوحات كبيرة مُزالة من على الجدار المتاخم للدرج، قام بتقدير عددها على عجالة فوجدها خمسًا.

"أنا سَيّد؟" تساءل بيتر في نفسه ثم أجاب كمن جَفِل: "ها أنا قادم" ثم بدأ رحلته في صعود الدرجاتِ فرادى وببطء، على عكس عادته المغرورة؛ مثاني وعلى عجالة. وهكذا انضم صحفي العام إلى إدوارد وتابعا معًا.

وأثناء طريقهما أضاف إدوارد ببالغ المكر والسرور:

- ها قد وصلنا!

شعر بيتر بقلق إضافيّ لم يتوقّعه، ولكن توقّعه مُرافقه الذي تعاطف معه فوضّح مَقصده بقوله:

- قصدت الطابق الثالث، لا مكتب السَيّد.

استاء بيتر من مداخلة إدوارد واعتبرها سمجة، واستاء أكثر لانعدام الحيلة ما بين يديه مما ولّد لديه الشعور بالإذعان أثناء متابعته لطريقه.

كجنازة، تابعا طريقهما كجنازة، امتازت بكون نعشها - المتمثّل ببيتر - في مؤخرتها.

المشهد الثالث

جَولة مُجحفة بحق

توقف إدوارد أمام بابٍ مُذهّبٍ مُتخم بالزخرفة، مثله مثل جميع أبواب قصر ليختنشتاين، تأكد من حسن هندامه ثم طرق الباب ثلاث طرقاتٍ منخفضةِ الأثر وأنصت إلى أن سمع أحدهم يقول: "ادخل". دخل إدوارد كما أُذن له ثم انحنى للتحية بإخلاص، وعندما استقام أضاف وهو يشير صوب الباب الذي دخل منه: "بيتر تشيك".

بحركة بسيطة من سبابته اليسرى، منح السَيّد براغ كبير الخدم موافقته على إدخال الضيف، وفي المقابل بسط إدوارد ذراعه حتى آخرها لبيتر مُفسحًا له المجال للدخول، وبدوره دخل بيتر مُعتزًا بنفسه وهو يعيد على مسامع ذاكرته فكرة كونه صحفي العام.

وفور دخوله باب الصالة المذهّب ودون أيّ إبطاء، وجد بيتر في انتظاره وافر الأسباب التي أثارت دهشته. إذ كانت الصالة رحبةً للغاية، سقفها مُغَشّى برسومات مُنَكَّهة بالعصور الوسطى، وأرضيتها مكسوة بسجّاد فارسيّ فاخر، أما واجهاتها فكانت ثريّة بالتنوّع، الجهة اليساريّة مكتبة هائلة متخمة بالكتب، تقابلها جهة اليمين واجهة زجاجيّة شاسعة مُطلة على الحديقة الداخلية للقصر، أما هناك في منتصف الواجهة الأمامية فكان يرقد مكتب أنتيك أنيق، تصطف من خلفه أربع لوحات غريبة غير متناسقة البتّة وكبيرة.

إلّا أن هذه التفاصيل الفريدة لم تكن الأبرز هناك، فثياب السَيّد روزيسكي، نعم ثيابه! ورغم شدّة بساطتها، كانت التفصيلة الأكثر تفردًا داخل تلك الصالة، فرغمًا عن كل ما هو متعارف عليه بكون الأماكن العظيمة ذات سحر طاغٍ يطغى على عظمة المتواجدين فيها. استطاع السَيّد براغ ببراعة عكس هذا المفهوم بلفتة بسيطة للغاية، ألا وهي ارتداؤه لمجرد روب، أو

ما يسمى بعباءة نوم. ضاربًا بعرض الحائط كل البروتوكولات المتوقعة للاستقبالات الرسمية أو حتى غير الرسمية!

كان السَيّد براغ في دَعةٍ داخل عباءة نومه الرماديّة اللامعة، وفي المقابل كان بيتر مصلوبًا في زيه الرسميّ، وعبارة "لا حضور دون أبهى حلّة رسمية ممكنة" تطرق رأسه كإزميل.

- لا بد من أنه يهزأ بي. (بيتر، مُخاطبًا نفسه)

- اقترب. (السَيّد، بنغمة لطيفة مُرحّبة)

وبُعيد خطوته الأولى التي خطاها للأمام، أشار السَيّد إلى حذاء صحفي العام وهو يناظر كبير خدمه. وكَرَدّ فعل على تلك الإشارة، أخذ بيتر يقنع نفسه بأنه من كل بد يسيء فهم ما يجري أمامه.

- توقف! (إدوارد، بصرامة)

كمجرم حرب، أُمِرَ بيتر من قبل إدوارد الذي اتجه ليقف أمامه كالسد، ومن على مقربة منه أضاف: "حذاؤك!". حقًا ما كان بيتر ليخلع حذاءه قط، وخصوصًا في تلك الطريقة وأمام من! أمام كبير الخدم المُنعّم بحذائه بكل حريّة، إلّا أن شدّة الصدمة تُعجّل من تقبّل مُسَببها. فإذ بصحفي العام يهوي ليخلع حذاءه.

سحب إدوارد حذاء بيتر خارج المشهد ليتابع السَيّد ببراءة ترحيبه الخاص بقوله "اقترب .. اقترب"، وبدوره اقترب الضيف من مُضيفه مَهيض الجناح وهو يحاول تأمله. كانت هيئة السَيّد توماس بالنسبة لبيتر كهيئة شيطان رغم شدة تواضعه، وكيف لا يكون كذلك وهو من استقبله بمثل ما فعل، بعدما استحوذ بمجرد عباءة على نظرات مسلوب الحذاء العطشى لتفاصيل المكان!

في واقع الأمر كان السَيّد براغ ذا هيئة قديرة للغاية، لدرجة تليق بمجموعة ألقابه. سمين نوعًا ما ويميل للطول بشكل ملفت، وشعره أجعد على عكس طبيعة شعور التشيكيين الملساء. "لأنني مختلف" شَعَر بيتر بلسان حال شَعْر السَيّد فاغتاظ.

- اجلس هنا. (السَيّد، مشيرًا إلى أحد المقاعد أمام مكتبه)

وأثناء جلوس بيتر في المكان المشار إليه، رحل إدوارد مُغلقًا الباب من خلفه، وكان وقتها صوت انغلاق الباب آخر ما تم سماعه في الصالة لقرابة دقيقة، أمضاها بيتر في انتظار افتتاح مُضيفه للحوار، وبعدما يئس بمراحل اجترأ صحفي العام على صمت المكان فقال:

- من الطرافة أن تتطابق أسماؤنا مع أسماء اثنين من أبرز لاعبينا السابقين في منتخبنا الوطني.

- ما اسمك؟ (السَيّد، مستفسرًا ببرود)

كان تساؤل السَيّد براغ قاسيًا للغاية، غير متوقع كزلزال شرس، رُجَّ على إثره بيتر حتى النخاع، وما كان صحفي العام ليسكن حتى شعر بقيمته السامية وهي تؤول للصفر، ووقتها سَكَن مُستسلمًا. أيقن أنه تبعثر للأبد، ورغم ذلك حاول تدارك خيبة البداية اللئيمة قدر الإمكان، فأجاب بشكل مقلقل:

- بيتر، بيتر تشيك.

- نعم .. نعم، أنت بيتر. (السَيّد، مُستذكرًا)

صمت السَيّد قليلًا ثم أضاف:

- ولكننا لم نتعاصر في ذات النادي، اعتزلتُ قبل انضمامك بمراحل. (السّيد، بانتقاص)

لم يشعر بيتر بالإهانة المُتَضَمنة في تعليق السَيّد، لا لانعدام أذاها، بل لارتوائه من الإهانة التي سبقتها! أضاف في محاولة لإعادة ترتيب أوراق حواره:

- يسعدني أن ألتقيك وجهًا لوجه، وعلى مدار يومين متتاليين. (بيتر، بابتسامة قلقة سخيفة)

- أحقًا كان ذلك؟ (السَيّد براغ، مُشككًا)

- يوم أمس! الاحتفال! (بيتر، بقهر)

- نعم، نعم، رجال الصحافة، قنّاصو اللقطات.

صمت السَيّد قليلًا ثم أضاف:

- ما أكثر هؤلاء أيّام الاحتفالات. (السَيّد براغ، باستهزاء)

أنهكت بيتر عملية التقزيم المُمنهجة التي آمن بتعرضه لها، تنهد بألم، لدرجة جعلته يعزم أمره على الرحيل، وقبيل رحيله، ألقى نظرة على كلتا قدميه باستياء مُحدّثًا نفسه: "ما أقبح الزيّ الرسمي من دون حذاء"، مُجَدِدًا بقوله ذاك طعم الإهانة التي تعرّض لها من جهة، ومؤكدًا على صواب قراره بالرحيل من جهة أخرى.

وعندما تأكد من صدق نيّته واطمأن لها، همّ بيتر لحمل جسده على الخروج، ليتفاجأ به يرفض الفكرة برمتها، إذ كان صحفي العام وقتها ما يزال دون دراية بسحر السَيّد الذي له من التأثير ما له، وما كان تأثيره الذي اجتاح جسد بيتر دون علمه إلا مثالًا بسيطًا على ذلك.

"يبدو أنني قد علقت في مكاني" علّق بيتر على حاله حائرًا بما عليه فعله. لوهلة، حدّث نفسه بفكرة توضيح دوره في حفل يوم أمس، إلّا أنه أسقط جدوى ذلك نظرًا لمستوى ما جرى له منذ لحظة استقباله لدعوة اللقاء.

وردت لذهن بيتر مبادرة عفوية جديدة جرّب حظه في بعضها فقال:

- يا لها من لوحات جميلة!

سبّب ذكر أمر اللوحات لمعانًا في عينيّ السَيّد، لمعانًا فريدًا، امتدّت فعاليّته لدرجةٍ جعلته ينهض من خلف مكتبه ليتجه نحو الواجهة الزجاجية ليناظر من خلالها حديقة القصر، ووقتها تبيّن لبيتر كون السَيّد يرتدي خفًا قماشيًا أبيض من أبسط ما يكون، "يا له من خفّ يستقبلني به!" قال بيتر في سرّه باستياء مضاعف وهو يناظر قدميه.

- بدأنا إذن! (السَيّد، بنظرة تحدّي)

شعر بيتر بالانتعاش فور حصوله على ما بدا له مباركةً للبدء بالحوار، "هذا هو ملعبي!" قال في سرّه وهو يتموضع أخيرًا في المجال الذي يبرع فيه. وكمقدمته المعتادة بالحوارات بدأ مُستفسرًا بثقة:

- كيف حالك سيّد توماس؟

تأخرت إجابة السَيّد لدرجةٍ جعلت بيتر يتخيلها كفنانة مسرح متعجرفة تتعمد المماطلة بالظهور. إلّا أن التأخر طال كثيرًا، أكثر مما يجب، مما ولّد لدى بيتر بعض الشكوك في فهم ما قاله السَيّد.

"بدأنا إذن! يبدو أنها صيغة مداخلة لا مباركة. تبًا، لقد أخطأت الفهم، ما كان عليّ سؤاله عن حاله"، قال بيتر في سرّه وحاله حال من ينتظر رد فعلٍ من السَيّد على هيئة صفعةٍ ما. صفعة على أقل تقدير!

التفت السَيّد نحو بيتر بعينين غاضبتين، لينفجر بعدها قائلًا:

- أحقًا تراني ممن تقتات بفخرٍ على مقابلة إحداهنّ طمعًا في وصولك للعامة! أتخاطبني أنا كما تخاطب راقصةً تخط بخصرها نبض قلوب عشّاقها؟

امتص بيتر صفعة السَيّد الشفوية بابتهاج جارف كاد يظهر عليه، "يبدو أنني تمكنت من إحراز هدفي الأول" قال بيتر في سرّه والبهجة تغمره، وفي الواقع معه كل الحق في ذلك فها هو السَيّد براغ شخصيًا يعترف أمامه ضمنيًا بمعرفته المُسبقة. وليست أيّة معرفة، أشد المعرفة، نعم لقد اعترف به كصحفي! إذ عُرف عن صحفي العام التخصص في الفن التشيكي بشكل عام، وفي الفن البراغي بشكل أخص، ولم يكن ليقصد الفن لذاته أبدًا، بل ممتهنيه، وخصوصًا ممن تجري خلفهم العامة فلا يفوّتون فرصة لرؤيتهم أو متابعة أخبارهم ولقاءاتهم، وبذلك يتابعونه "بالمعيّة" كصفحي.

وبمبدأ كهذا قابل بيتر أثناء عمله العديد من أهل كل ما بات يُعرف في عهدنا الحديث بمصطلح "الفنون"، وخصوصًا المجالات التي يوصف ممتهنوها بوصف "المثقفين"، بغض النظر عن قناعة بيتر الشخصية بهم أو حتى بفنونهم، قابل كبارهم وصغارهم وحتى سخفاءهم، وبكافة المجالات؛ ما بين التمثيل والغناء والرقص وغيره.

تمالك بيتر نفسه، ثم أجاب بثقة قاضي محكمة:

- ولكنك بكلامك هذا تهين الراقصة.

- بل الرقص من يفعل ذلك. (السَيّد براغ، بثقة)

- يا لها من إجابة مراوغة! (بيتر، بثقة للمرة الأولى)

ضحك السَيّد براغ جرّاء سماعه تعليق صحفي العام حتى الثمالة، ثم دنا منه وجلس قبالته، جلسا وجهًا لوجه، "نزل عن عرشه المكتبي، يبدو أنني أصبته إصابة ما. لا بد من أنه سيهاجمني الآن" قال بيتر في سرّه وهو يتفحص عن قرب ملامح الكاتب الشهير، إذ رآها كما لم يرها أحد من قبله من التشيكيين، باستثناء زوجته وربما أولاده.

- حسنًا وماذا لو كان وأهنتها؟ (السَيّد، بتحدي)

- ستخسر جزءًا من محبيك، فالراقصة تمثل فئة فنيّة من المجتمع، سواء كمؤدين أو مؤيدين أو متابعين. (بيتر، بقلق)

- وإن كان واحترمتها؟ (السَيّد، بثقة)

- لن تخسر شيئًا. (بيتر، بقلق أكبر)

- وماذا إن خسرت نفسي!

فوجئ بيتر بالجواب الذي سمعه، بينما صمت السَيّد قليلًا ثم أضاف:

- دعني أكلمك بفكرٍ تفهمه جيّدًا؛ ماذا إن خسرت من لا يحترمونها؟

ذُهل بيتر من سؤال السَيّد الأخير لدرجة ألجمته، وفي المقابل تابع السَيّد غير آبهٍ بما يدور في خُلد ضيفه قائلًا:

- بالمناسبة، أنا لا آبه برأيك. وأتمنى أن لا تأخذ الأمر على محملٍ شخصيّ، فأنا لا آبه برأي أحد.

- أيعقل أن لا يأبه كاتب مثلك برأي قرّاء كقرّائك، لا أصدّق! (بيتر، باستهجان)

- نعم لا أفعل. فلا أحدٌ مثلي، لا أحد مثل توماس روزيسكي. دعني أُكلمك بفكرٍ تفهمه مرةً أخرى؛ أتُجمع أغلبية أهل الأرض على باطل؟ أقصد قرّائي؛ أولئك العطشى حول كل ما يخصّني كشخص، الذين ما تزال تستهدف جذبهم نحوك رغم كل ما تعرضّت له منذ لحظة تلقّيك دعوة مقابلتي حتى هذه اللحظة! (السَيّد، بغرور)

تأكد بيتر لدى سماعه تعليق السيّد من شعوره بالتعرّض لعملية تقزيم مُمنهجة، ولانعدام الحيلة بين يديه وجد بيتر نفسه يتقزّم أكثر فأكثر. علّق في محاولة بائسة منه للهجوم:

- ولكن ماذا في حال لم يجمعوا؟ (بيتر، متجاوزًا إهانة السيّد)

- أنا أُجمع. (السَيّد، بثقة مطلقة)

- ولكن الإجماع يكون من مجموعة. (بيتر، مُجادلًا)

- أو من شخص يكافئ مجموعة، شخص ما من الخاصّة، أنا. (السَيّد، بتباهٍ)

تقزّم بيتر أكثر أمام نفسه، وفي المقابل تابع السَيّد كلامه بتعمّق:

- ينقسم البشر إلى ثلاث فئات؛ الخاصة، أشباه الخاصة والعامة. وأنا بالطبع لا أشبه أمثالك. فنحن "الخاصة" لا نأبه لأحد، فما بالك بمجرّد رأيٍ تابعٍ لأحد؟

اشتعلت في ذهن بيتر العديد من التعليقات التي تحمل في طياتها الإساءة إلى فكر الكاتب الشهير إلّا أنه فَضّل إخمادها، وفي المقابل نهض السَيّد من مكانه ليتجوّل في الصالة مضيفًا:

- للمعلومة، الرقص مجرّد آداءٍ وليس فنًّا.

لاح في داخل السَيّد براغ كائنٌ ما يتكلم. طائر؛ طاووس بالتحديد! ومنذ تلك اللحظة بدا السَيّد وكأنه يكلم نفسه دون سواها.

- يكمُن الفن في ابتداع فكرة مُبهجة من العدم، أو إيجاد شيء جميل من اللاشيء. كالرسم على ورقة بيضاء مثلًا، أو النحت في صخرة ملساء، أو التشكيل في كوم طين، أو الطبخ. (السَيّد، هائمًا)

- الطبخ! (بيتر، باستهجان)

- ألا يُعدّ الإبداع بتجميع المكونات المتوفرة بين أيدي الجميع بالفن؟

- وماذا عن الكتابة! (بيتر، بخبث)

- لا. (السَيّد، بهدوء)

بردٍّ صارم، حجّم السَيّد محاولة ضيفه الاصطياد في المياه العكرة، ليتابع بعدها الطاووس القابع في داخله قائلًا:

- الكتابة أسمى من الفن، أسمى بكثير؛ فالكتابة ابتداع فكرة من العدم، يتبعها إبداعٌ في صفّ حروفٍ تكاد لا تنتهي، مع العلم بأن ذلك يكون دون أدنى مساندة من أحد. حاول التخيل معي - إن أمكنك ذلك - أن تكون هائمًا في فضاءٍ أبيضٍ، ووحيداً، لا تملك شيئًا سوى التَفَكُّر.

ابتسم السَيّد براغ ببرود ثم أضاف بصيغة استهزاء:

- التفكّر الذي هو ما بعد التفكير الذي تسمع به.

صمت السَيّد قليلًا وبدا بعيدًا شارد الذهن، تاركًا بؤبؤيه في حركةٍ دائريةٍ سريعةٍ مقيّدةٍ ضمن حدود عينيه شبه الدامعتين. كانتا تتلألآن! تابع:

- إن التفكّر رحم الكتابة المكين، قليلون هم من يأتون بالأفكار الـمُبتدعة، وقليلون هم من يسطّرونها على الورق بالرتم الأصح. فما بالك بِالكَمّ القادر على الابتداع والتسطير معًا؟ ألا إنها أم الفنون! (السَيّد، متابعًا)

- وماذا عن التلحين؟ إبتداع وتسطير معًا؟ أليس كذلك؟ (بيتر، بخبث)

- ومن قال إن التلحين لا يعدّ نوعًا من أنواع الكتابة! (السَيّد، كحارس مرمى يقوم بتصدٍ رائعٍ لركلة جزاءٍ أكثر من رائعة)

ندم بيتر على مداخلته التي فشل باستغلالها، وفي المقابل تابع السيّد وجهة نظره ممعنًا في تأكيدها لدى ضحيته:

- إلّا أن عدد الأحرف المستخدمة للتعبير عنها قليل للغاية بالنسبة للغات المنطوقة! (السيّد، بغرور)

- ألا ترى في ما قلته شيئًا من الغرور؟ (بيتر، بجرأة)

- تسألني ذلك كشخص أم ككاتب؟ (السَيّد، بحدّة)

- ككاتب. (بيتر، كمن يعتذر)

ابتسم السّيد في وجه ضيفه ابتسامه هادئة، حسبها بيتر إشارة ما تسبق عاصفة جديدة، إلّا أن السَيّد فاجأه بمتابعة حديثه ببرودٍ قائلًا:

- سواء كشخص أو ككاتب، لا تقلق فالأمر عندي سيّان، فكما قلت لك منذ قليل، أنا من الخاصّة!

ضحك السّيد بلطف متابعًا بصوت منخفض:

- من أين لأمثالك بمعرفة أهل الخاصة، وبمعرفة كيفية تفكيرهم!

انزعج بيتر مما سمعه من تقليل السيّد لقيمته في المجتمع، وكردّ على ذلك، حاول تأكيد اتهام السيّد بالغرور فقال:

- أرجو أن تعذرني، فلم أقصد اتهامك شخصيًا بالغرور.

- الغرور! أتعرفه؟ بالطبع تعرفه. أقصد القول أتحسب نفسك محيطًا بمعناه؟ بماهيّته؟

تابع السّيد قبل أن ينبس بيتر ببنت شفة:

- الغرور هو انخداع المرء بنفسه وإعجابه بها ورضاه عنها، أو بتعبير آخر؛ الكبرياء والأنفة تحت ضغط الشعور الخادع بالأهمية والمكانة.

- حسنًا. (بيتر، باستهجان)

- إذن لا داعي للاعتذار عن اتهامي بالغرور.

شعر بيتر بسوء فهمٍ ما، أراحه منه السَيّد بقوله:

- الغرور مصطلح أنيق يليق بالعامّة، ويليق أكثر بأشباه الخاصة، وكما تعلم وتشعر إنه شديد الانتشار بينكم.

- ولكنني كنت أحسب نفسي من الخاصة! (بيتر، بانزعاج)

كقنّاص، علّق السيّد:

- ألم أقل لك منذ قليل؟ كبرياء وأنفة تحت ضغط الشعور الخادع بالأهمية والمكانة!

استاء بيتر كما لم يستأ ذاك اليوم، وحدها جائزة يوم أمس من كانت تسند ظهره في تلك اللحظة.

- شبه خاصة؟ أنا! (بيتر، تساءل باستياء)

- هي ذاتها شبه عامة، أليس كذلك. (السَيّد، بمكر)

تابع الطاووس القابع في هيئة السَيّد حديثه:

- لا فرق كبير بينكم، كلكم عامّة، أو أشباه العامّة، أو أشباه الخاصّة كما بتّ تودّ من داخلك بتسميتها. كلكم متشابهون، أما نحن فمن عالم آخر، مجرّة أخرى، نحن الأساطير! (السَيّد، بغرور طاووس)

- أساطير! يا لها من مُفردة كبيرة. (بيتر، بذهول)

- ليست المفردة الكبيرة، بل الأساطير من هم الكبار، الأساطير الذين استحقوا التخليد في التاريخ. (السَيّد، بثقة)

- ولكن أليس هناك راقصات مخلّدات في التاريخ؟ (بيتر، بروح منتقم)

- عُدت لسيرتهنّ! (السَيّد، ضاحكًا)

خجل بيتر من نفسه، وفي المقابل تابع السَيّد كلامه:

- الموضوع ليس بالبساطة التي تعتقدها.

كان بيتر آنذاك يتابع الطاووس المتكلم بتركيز شرس.

- الأسطورة هو من يتمكّن من التربع على عرش ما لأعوامٍ مديدة، أربعين عامًا، خمسين عامًا، ستين عامًا أو أكثر. (السَيّد، متابعًا)

- وما المانع من وجود الأساطير في عالم الرقص؟ حتى وإن كنت لا تعتبره فنًا! (بيتر، بحالة مشوّشة)

- أهناك راقصة تتربع على عرش الرقص طوال تلك الفترة! (السَيّد، ضاحكًا)

هدّأ السَيّد من نفسه ثم أضاف:

- أتسمح أجسادهنّ بحدوث ذلك؟ ثم أخبرني، من ربط لك أمر الأساطير بالرقص أو حتى بالفنون بالمجمل! الأمر أعم، أعم من ذلك بكثير، الأساطير ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة أعظم، ألا وهي العرش. (السَيّد، باستهزاء)

- العرش! (بيتر، مُبَعثر الفكر)

- نعم العرش؛ قمة كل شيء، القمة في أيّ المجالات، بغض النظر عن ماهيتها أو حتى أهميتها.

وبذلك ختم السَيّد براغ كلامه وهو يجلس في مكانه الأول خلف مكتبه، محاكيًا بجلوسه جلوس ملك ما على عرش ما، أما بالنسبة إلى بيتر، فبدا له المشهد كطاووس قرر الجلوس والاكتفاء من نشر ذيله ململمًا إياه بهدوء وبطء.

المشهد الرابع

مُحاولة بائِسَة للهجوم

"بإمكانك المباشرة" نطقها الكاتب الشهير كمعلومة عابرة استقبلها صحفي العام كقنبلة يدوية منزوعة مسمار الأمان، ولّدت في نفسه على الفور تساؤلًا استنكاريًا مفاده "ألم نباشر بعدا!" وأثناء ذلك كانت هيئة الطاووس المتكلم تتلاشى من المشهد أمامه. اعتصر بيتر عقله حتى حصّل ما يودّه ثم بادر: - يتمّلك العديد من محبيك فضول جارف لمعرفة رأيك ببضع نقاطٍ سبق وطرحها بعض النقّاد على مدار مسيرتك الأدبية العظيمة. (بيتر، كمُفلس فكريًّا) - نقّاد لمسيرتي! (السَيّد، باستهجان)

- ألم تسمع عنهم من قبل! (بيتر، باستهجان أكبر)

- كلّا. (السَيّد، باستهجان)

- كلّا! (بيتر، بابتسامة ساخرة)

- إنه أمر لا يعني لي. يا هذا! أنني أحذّرك ومحاولة التفكير بالسخرية ممّن هو مثلي! (السَيّد، بغضب) عدّل بيتر من جلسته، وأشار بيده معتذرًا، وكان مقصده من تلك الإشارة توثيق محاولته للسخرية لا أكثر، وفي المقابل أصرّ السَيّد على إهانة ضيفه على طريقته الخاصّة فتابع قائلًا: - الساخر بالحقيقة، ساخر بنفسه لا بها. (السَيّد، بغضب) بصمت، انزعج بيتر من قول السَيّد الذي تابع بعدها مرتاح الضمير:

- بعيدًا عن عالم السياسة، يُقال "فاقد الشيء لا يعطيه"، والناقد مثال حيّ على هذه المقولة.

- أنت بذلك تسيء للنقّاد. (بيتر، بشماته)

- بل النقد من يفعل ذلك. (السَيّد براغ، بثقة)

صمت ثم أضاف:

- أخبرتك مسبقًا بكوني لا آبه برأي أحد. يا هذا، أنا سريع الضجر من البشر، فلا تدفعني لتكرار كلامي. (السَيّد براغ، بتحدّي) نهض متابعًا وهو يتجول في الصالة بخفّه الأبيض:

- نقد الابتداع فشل، تخيّل معي - إن أمكنك ذلك - انتقاد عربة لا تعرف قيادتها! ما رأيك؟ (السَيّد) - فشل ذريع. (بيتر، كطالب نجيب)

- فما بالك بنقد عربة ممن لا يعرف ماهيتها! هذا حال النقّاد. (السَيّد) آثر بيتر الصمت، ومن حسن حظه أنه فعل. تابع السَيّد:

- كان أشباه الخاصة ليجيبوك بما قلته للتوّ، أمّا أنا فوجهة نظري مختلفة تمامًا عنهم. (السَيّد، ساخرًا) حدّق السَيّد في عينيّ بيتر كما لم يفعل من قبل ثم تابع تجواله وأضاف:

- الكتابة قائمة في أصلها على مفهوم الابتداع، وهذ يجعل منه - من الابتداع - أمر بديهي للغاية رغم عظمته، وهناك أيضًا إبداع في الابتداع، وهو الأمر الذي أجيده أنا. فهل تراني سآبه بمن ينتقد ذلك؟

كان السَيّد وقتها على مقربة من مكتبته، وفي المقابل كان صحفي العام يائسًا من متابعة النقاش في ذات النقطة، مما دفعه لاقتناص سؤالٍ تقليديٍّ لم يتردد لحظة في طرحه، فتساءل: - بمناسبة امتلاكك لمكتبة هائلة كهذه، اسمح لي بالتطفّل وسؤالك عمّن تقرأ له؟ (بيتر، مشيرًا للمكتبة) - التطفّل طبع متجذّر فيكم. (السَيّد، باشمئزاز)

غضب بيتر واضطرّ لكظم غيظه، أما السَيّد فتابع دون اكتراث:

- أنا لا أقرأ سوى لنفسي، أما هذه المكتبة فهي لمارتنيا زوجتي.

ظهر على بيتر شيء ما من التيه، أنقذه منه السَيّد بقوله:

- لا عليك، ستفهم ذلك لاحقًا. دعنا من المكتبة وتابع، ما بال هؤلاء النقّاد؟ (السَيّد، بابتسامة فضولية ساخرة) "ما الذي يقصده بلاحقًا؟ ما الذي ينتظرني في هذا القصر العجيب!" قال بيتر في سرّه والشعور بألفة المكان والسَيّد وأسلوبه يزداد بشكل مريح. تابع باطمئنان للمرة الأولى منذ احتفال الأمس: - بالرغم من كمّ الروايات الجمّ التي أمددت به المكتبة التشيكية، وبالرغم من عدد الشخصيّات المتنوعة التي ظهرت من خلالها، لم تظهر أيٌّ منها كشخصيّة مؤمنة بديانة ما. أيدل ذلك على شيء ما؟ (بيتر، بتحفّظ) - شيء ما، مثل ماذا؟ (السَيّد، باستهزاء)

- عدم إيمانك مثلًا؟ (بيتر، أكثر تحفّظًا)

ضحك السَيّد كما لم يضحك يومها، ومع استنفاذه لضحكاته أجاب متفحصًا ضحيته:

- هيئتك لا توحي بالإيمان لتسأل مثل هذا السؤال! (السَيّد، بمكر) - أرجو أن لا تحكم على إيمان المرء من هيئته. (بيتر، بزهوّ) - ولكنك فعلت معي للتوّ ما يماثل ذلك، كما وتفعلون ذلك مع الآخرين طوال الوقت، ألا تحكمون على المتشدد من مظهره، والعاهرة من ملابسها أو حتى من مجرد ضحكتها؟ (السَيّد، كمن أحرز ركلة جزاء) - أحيانًا .. (بيتر، متلعثمًا)

- تصنيف البشرية وإطلاق الأحكام المسبقة بشكل عشوائي، أمر شائع وسهل المرام بينكم. تخيّل معي، واسأل نفسك بحياد - إن أمكنك ذلك - هل تستطيع التمييز بين متشدد ومؤمن وغير مؤمن، من الوهلة الأولى؟

- الهيئة .. (بيتر، متلعثمًا)

قاطعه السّيد مرة أخرى قائلًا:

- ألا تعطي ذات الهيئة عدة دلالات في حال استنادنا على عدّة خلفيّات مُجتمعيّة؟ (السَيّد، بانفعال) - أحيانًا .. (بيتر، متلعثمًا)

قاطعه السّيد مرة أخرى قائلًا:

- لا، لن تستطيع التفريق بينهم.

- أتفق، ولكن ماذا عن الوهلة الثانية؟ (بيتر، بمكر)

- ستميّز بينهم استنادًا على ما تتوقعه أنت.

احتدّت نظرات السيّد ثم أضاف:

- أو بالأحرى ما تتمناه. (السَيّد، بازدراء)

كما اعتاد منذ دخوله الصالة، شعر بيتر بتحجيمه، إلّا أنه لم يتوصل لإجابة من كلام السَيّد حول كونه متديناً أم لا، وفي المقابل شعر مرة أخرى بأفضلية الاستسلام له كمحاور، فاستسلم مُحبّذًا الانتقال للنقطة التالية ضمن أجندة أفكاره المُرتجلة فقال: - لم تكن الشخصيّة المتديّنة وحدها غير ظاهرة في روايات السَيّد براغ، فالأطفال كذلك الأمر، لم يكتفِ السَيّد بعدم ذكرهم وحسب، بل ولم يشر إليهم قط! لا من قريب ولا من بعيد! (بيتر، مُتحفظًا على كلماته) - أتقصد أنني أكره الأطفال؟ (السَيّد، بحزن مظلوم)

- بالطبع لا، فلا يجوز اتهام أبٍ لثمانية أبناء بتهمة كهذه! (بيتر، نافيًا) همهم السَيّد للحظات ثم أضاف:

- ينتقص وجود الأطفال من الأعمال الأدبية العظيمة.

أضاف قبل أن يسمح لبيتر المُتَعَجِّب بالتعبير عن رأيه:

- أنا أتكلم عن العظيمة منها "فقط".

همّ بيتر بالمداخلة مرة أخرى، إلّا أن السَيّد تابع دون أدنى اكتراث له:

- ويكون ذلك على عدّة محاورٍ أهمها؛ ركاكة لغتهم المنطوقة، وقصور إمكانياتهم بالأفعال، وفقر ردّات أفعالهم تجاه ما هو متاح لغيرهم.

- ولكنك تشاهدهم في الأعمال الدرامية، سواء التلفاز أو السينما. (بيتر، مقتنصًا إضافة خبيثة للحوار) - وماذا عن المسرح؟ (السَيّد، بخبث أكبر)

- أحيانًا .. (بيتر، متلعثمًا)

قاطعه السّيد قائلًا:

- مشاهدة الدراما مختلفة عن قراءة الرواية، فللدراما عناصر متنوعة تحمل بعضها البعض كفريق، كوحدة واحدة، مثل طريقة التعبير الشفوي وأسلوب الحركة والموسيقى التصويرية وتنقلات الكاميرا وتنوع ألوان الخلفيات، وما هو الأهم بالنسبة لأمثالك؛ جمال هيئات الشخصيات.

وكل ذلك يعدّ على النقيض التام من أمر قراءة الرواية، إذ تراها نصًا جامدًا، يحمل وحده واجب الجذب نحو عالِم مُتخيلٍ غير مطروق.

تابع السَيّد تجواله في الصالة مضيفًا:

- حتى الأعمال الدرامية الكبيرة تخلو منهم. إلّا في حالة واحدة؛ ألا وهي توفر طفل نابغة تتناسب نبوغته مع نبوغة النص، وما أقلّ توفرهما معًا أو على حدة.

- ونظرًا لاستبعادك لهم في عالمك الأدبي، أنجبت في حياتك الشخصية الكثير منهم، لا بد من أنك تحبهم كثيرًا. (بيتر، كمحلل نفسي) - بالطبع لا، رؤوسهم كثمار الكيوي، أجدها لا

تصلح لشيء سوى للتقبيل، تمامًا كما يُقَبّل المتوّجون بكأس العالمِ الكأسَ خاصتهم. (السيّد، ضاحكًا) ذُهل بيتر من شدة قسوة تشبيه السَيّد الأخير! ذُهل لدرجة جعلته يمنح السَيّد المجال للمتابعة دون أدنى محاولة لإزعاجه.

- الإنجاب فعل أحمق يكافئ توقف عدّاءٍ أمام منافسيه لمجرد تعديل رباط حذائه قبيل اجتيازه للخط الذي سيجلب لبلاده ذهبية ألومبياد. (السَيّد، مضيفًا بغرور) تضاعف ذُهول بيتر جرّاء سماعه للتعليق المريض من السَيّد. تساءل مهزوزًا:

- وماذا عن الثمانية؟ أبنائك!

- إنهم أبناؤها، مارتينا روزسكي - زوجتي - كان وأنجبتهم لها لا أكثر! إنها تعشقهم، وأنا أعشق عشقها لهم، يا له من عشق مُلهم!

- ألا تخشى سماعهم لكلماتك؟ (بيتر، بقلق)

- لا، أنا صريح بمشاعري، أكره الأطفال، لم أرغب بإنجابهم قط، أما أبنائي فلا أكرههم، بل ويمكنك القول بأنني أحبهم. (السَيّد، ببراءة) - يبدو أننا أمام مفارقة عجيبة، بأن حمل لنا حزيران 1967، أولى رواياتك العظيمة، رواية الأم، رغم ما سمعته للتوّ منك حول وجهة نظرك بخصوص الإنجاب! (بيتر، باستهجان) - أين المفارقة في ذلك؟ (السَيّد، بثقة)

جلس السَيّد خلف مكتبه وتابع بغروره المعتاد:

- لقب الأم عظيم لذاته لا لتبعاته، إنه أعظم الألقاب البشرية بعد لقب السَيّد براغ.

ابتسم السيّد بغرور، بينما تظاهر بيتر بعدم الانتباه. تابع السيّد:

- الأم حالة، أما الإنجاب فحَدَث، ولذلك تجد الأم كائنًا مُختلفًا تمامًا عن الـمُنجبة، حتى قدرات كل منهنّ مُختفلة. بالمناسبة، أتدرك مفاهيمي التي أتكلّم فيها؟

همّ بيتر بالحديث إلّا أن السَيّد تابع بشكل مباشر:

- الإنجاب قد يكون مرحلة من مراحل الأمومة، وقد لا يكون.

- أمومة دون إنجاب! (بيتر، مقاطعًا السَيّد للمرة الأولى) تابع السَيّد وكأنه يكلّم نفسه:

- الإنجاب، بكافة أشكاله سواء كان ولادة أو إباضة أو غيره، حدث دوري كالاستيقاظ والنوم، عامل مشترك بين جميع إناث المخلوقات. أما أمومتهنّ فتتباين أشدّ التباين. فكما تعلم، لكل فصيل حيواني فترة أمومة خاصة به، تُجبل فطرة الإناث على تمضيتها، وحدهنّ إناث البشر من يمتلكن الحرية المطلقة في تحديد فترة أمومتهنّ.

تابع السَيّد تجواله في الصالة وأضاف:

- من النساء من تنتهي أمومتها قبل أن تبدأ، فور وضعهنّ لما في أرحامهنّ، وفي المقابل قد تراها تبدأ فور لقائها بمن ستكون له أمًا.

تابع السَيّد وهو ينظر إلى الصالة:

- الأم الحق؛ هي تلك التي تحمل بيديها صغيرها منذ أول نظرةٍ تراه فيها، حتى تموت وذات يديها اللتان حملتاه تقبضان على قلبها خوفًا وقلقًا عليه.

أعجب بيتر بما سمعه، إلّا أنه شعر بانجراف الحوار نحو محور ثانويّ رغم مركزيّته، فحبذ تعديل الدفة بسؤال أخطأ كثيرًا باختياره إذ تساءل: - وماذا عن البيئة؟ ألا تستحق ..

- ينتابني شعور مريب لم أتأكد من حقيقته بعد. (السَيّد، مقاطعًا باستياء) امتعض بيتر من تكرار مقاطعة السَيّد لحديثه، إلّا أنه مثّل الترحيب بما سَيطرحه قائلًا: - ألا وهو؟ (بيتر، بفضول)

تابع السَيّد بسكونٍ فريد لا يشوبه سوى حركة بؤبؤي عينيه:

- أشعر بأن الكون مُنحصرٌ ضمن مدى رؤيتي؛ بمعنى أنه وُجِدَ لأراه أنا حصرًا بعيني. (السَيّد، كالطاووس مجددًا) - وماذا يحدث في حال أغمضتهما؟ أو في حال رمشت بهما مثلًا؟ (بيتر، مُستنكرًا ما سمعه) - يتلاشى! (السَيّد، كالطاووس في أبهى حلّة)

أحس بيتر بنوع ما من انحراف عقل السَيّد عن مساره الطبيعي، فبادر في محاولة لإعادته إلى مساره: - ولكنني أؤكد لك بأنني لا أتلاشى، خصوصًا مع كل رمشة ترمشها!

- ومن قال أنك ستدرك كونك تتلاشى أم لا؟ (السَيّد، بجدّية) وبموجب الفكر المريض الذي سمعه لتوّه، شعر بيتر بالدهشة لدرجة مكشوفة جعلت السَيّد يقهقه. وعندما اكتفى علّق ساخرًا: - كنت أمازحك.

ابتسم بيتر رغم عدم إدراكه لحقيقة فكر مُستضيفه، وكردٍّ مُنتقم على ابتسامته أضاف السَيّد بملامح لئيمة وأكثر جدّية: - بل هذا ما يحدث لنا في الأحلام، نبني العوالم ونحدّث الشخوص ونصنع الأحداث، ثم ماذا يحدث عند استيقاظنا؟ يتلاشى كل شيء!

بُهت بيتر كما لم يبهت قط، وكان ذلك أبسط رد فعل يصدر عنه أمام تلاعب السَيّد به وبأفكاره، مُتلقفًا إياه ككرة بين قدميه، طارحًا لفكرٍ مجنونٍ يقوم بنقده، ليعاود بعدها ويقوم بتأكيده.

حاول بيتر استجماع أفكاره. تساءل في سرّه: "حتى هذه المرة لم أحصل على إجابة منه"، وفي المقابل تساءل السَيّد ضاحكًا: - قلت "البيئة"؟ (السَيّد، كمن سمع تساؤل بيتر)

شعر بيتر بوجود أمر يتناقض مع ما سمعه من السيّد، مما استوجب منه الاستفسار بشكل صريح فتساءل: - أحقًا تشكر من يصنع لك الأطعمة والأشربة؟ (بيتر، غير مُصدق) استغرب السيّد من تحوّل مجرى الحوار، فتساءل:

- عفوًا؟

- قيل لي بأنك لا تستقبل طعامًا ولا شرابًا دون توضيح ماهيته وذكر اسم مُعدّه، أليس كذلك؟ (بيتر) - أولم تسألهم عن السبب؟

- بلى. (بيتر)

- ألم يجيبوك؟

- بلى، فعلوا. (بيتر)

- حسنًاّ وما مشكلتك في ذلك؟

- تكمن المشكلة بأن إجابتهم لا تتناسب مع شخصك البتّة! (بيتر) ضحك السيّد من ملاحظة بيتر مما أغاظه أكثر، طالب قائلًا:

- أرجو أن تفسّر لي الأمر من وجهة نظرك. (بيتر)

- أنا ببساطة لا أشتهي الأطعمة، لا وقت عندي للتفكير في أمور كهذه، ولهذا أطلب من مقدمي الأطباق توضيح ماهيتها لأعرف إن كانت ستتماشى مع ذوقي "في حينها" أم لا! (السَيّد) - وماذا بخصوص ذكر اسم مُعدّ الطبق؟ (بيتر)

- لا يعني لي شيئًا.

- ماذا! والشكر؟ (بيتر)

- إنها مارتينا زوجتي، تظنّ أنها بذلك تضغط على صانعي الأطباق ليقدّموا الأفضل مما لديهم.

- ولكنهم لا يخدمونك دون مقابل، إنهم هنا مقابل أموالك، أقصد القول بأن السيّدة مارتينا ليست بحاجة لمثل هذه الأساليب! (بيتر) - أتظنّ حقًا أن السيّدة براغ لا تعلم ذلك؟ بالطبع

تعلم، إلّا أنها تؤمن بأن خدعة بسيطة "كقضية شكر العاملين" كفيلة لدفعهم لإتقان العمل لدرجة الكمال وتقديمه من أعماق القلب.

"لا بد من أن هذين الزوجين من جنس الأبالسة!" علّق بيتر في سرّه مذهولًا. وبعيد الجنون الذي سمعه، انتاب بيتر الفضول حول سؤال لم يكن ليطرحه على من تجاوز الثمانين من عمره، إلّا أنه تجرأ وقتها وطرحه: - سيّد توماس. ألا تخشى الموت؟

- لا. (السَيّد، ببرود)

- أستعددت له؟

- لا. (السَيّد ببرود أكبر)

- حقًا؟ (بيتر، باستهجان)

- وماذا عنك؟ ألا تخشى الموت لدرجة الموت بحد ذاته؟ ورغم ذلك لم تفكر بالاستعداد له حتى يومك هذا؟ ما الذي تنتظره؟ أم تحسب الموت متخصصًا بأمثالي ممن نجح باجتياز السبعينيّات من عمره؟

شعر بيتر بالضيق من حقيقة ما قاله السَيّد، فصمت تاركًا له ملعب الحوار بأكمله ليناور فيه. وبالفعل تابع السَيّد متأثرًا: - سأعترف لك بسرّ قديم.

تفاءل بيتر بينما أخذ السيّد يتابع كلامه:

- سبق وخشيت الموت في فترتين من الزمن، كانت الأولى من مفهوم سطوته القادرة على إطاحته بوالديّ.

- متى كانت هذه الفترة؟ (بيتر، كصحفي)

- طوال فترة احتياجي لهما.

- بالنسبة لمن هو مثلك، وأتمنى أن لا تظنّني أحسدك في ما سأقوله، لقد ولدت لتجد نفسك من أثرى أثرياء براغ، وتمكنت من النجاح بعمر صغير، وفي عدة مجالات. لا بد من أن فترة حاجتك لهما كانت قصيرة للغاية، أليس كذلك؟ (بيتر) - الحاجة للوالدين ليست مادية وحسب، بل وجوديةً أيضًا، ففي وجودهما بحد ذاته تلبية لحاجات عظيمة محسوسة غير ملموسة، وذات أثر راسخ للأبد.

- أيعني ذلك أنها كانت فترة طويلة؟ (بيتر)

- طوال حياتهما.

- يبدو أنهما كانا مميزين. (بيتر، مجاملًا)

- كانا ضمن المتوقع منهما. (السَيّد، دون تكلّف)

- إنها المرة الأولى التي أستمع فيها إلى ضيفٍ لا يبالغ في مدح والديه. (بيتر، باستهجان) - هذا لا ينفي كونهما أفضل من والديك بعشرات المراحل، أو أفضل حتى من أهالي الملايين من البشر. (السَيّد، كموجّه إهانة) صمت ثم أضاف:

- كما ولا يؤكد ذلك. (السَيّد، كموجّه اعتذار)

وبينما كان بيتر يحقد على لسانه الملجوم - على غير العادة - أمام لسعات مُضيفه السامّة، تابع السَيّد: - أخبرتك من قبل؛ أنا صريح بمشاعري. أعيش الحقائق لا الأمنيات، بعكسكم أنتم، تحبّون الأمنيات فتتخيلونها وتعيشونها، وفي المقابل تتغاضون عن الواقع الذي ترفضون. ألم تتساءل عمّا إذا كانت الأرض ستكون على ما هي عليه لو أصاب الآباء والأمهات نصف حسن ظنّ أبنائهم بهم؟ بالطبع لا.

- وماذا عن الفترة الثانية؟ (بيتر، مستاءًا من كل مراحل الحوار) - الثانية كانت من قدرة الموت على الإطاحة بي، بدأت هذه الفترة مع ولادة صغيري الأول. (السَيّد) - ولا بد أنها ما زالت مستمرة حتى اللحظة؟ (بيتر، مستفسرًا) - لا، انتهت بزواج آخر صغاري. (السَيّد)

- يثيرني التناقض ما بين فكرة امتلاكك لفلسفة خاصة تجاه الموت وإحساسك المتعلق بحقيقة الكون. (بيتر، مضيفًا بمكر) - هل سبق وأن اكتشفت كونك في حُلم، وتتابعه رغم ذلك؟ كما وتبالغ بردّات أفعالك وإمكانياتك وقدراتك؟ وليس ذلك وحسب بل وتستغلّه بما يسعفك به الوقت لتحقيق البعض من أحلام يقظتك؟ (السَيّد، مستفسرًا بازدراء) - بلى، ظننته أمر يحدث لي وحدي، أحقًا يحدث ذلك معك أيضًا؟ (بيتر، بخجل) - لا، فأنا أحقق أحلامي في يقظتي. (السَيّد، بغرور)

تابع السَيّد تاركًا بيتر مشغولًا بأحدث الإهانات التي ألحقها به:

- أما في الوقت الحاضر فعلاقتي بالموت منحصرة بكوني لا أتمناه ولا أنتظره، وفي المقابل لا أخشاه، ولا حتى أخشى اقترابه ممن هم حولي، لم يعد في الحياة ما يغريني لآبه به، محيطي مُقَزّم للغاية لا يحوي على ما يحثّني على الاستمرارية فيه، ولا حتى من أجله، والأهم من كل ذلك، لم يعد عندي ما أريد قوله.

شعر بيتر بتعرضه لنوع ما من الطرد، إلّا أن السَيّد استطرد ضاحكًا:

- أقصد القول؛ لم يعد عندي رغبة بالكتابة.

- أيعقل أن ينفد مخزون السَيّد براغ من الأدب؟ (بيتر، بلؤم) - أفتقد الرغبة لا الإمكانية أيها المتحذلق!

صمت قليلًا ثم أضاف باستياء:

- أكتفيت من البوح، مللت تكوين الأفراد وتشكيل المجموعات، ومن ثم ابتكار الأحداث واختلاق التفاعلات وإيصال الرسائل، حقًا اكتفيت. دعنا من أمر النقّاد هذا، مللته. (السيّد، بملامح جدّية للغاية وكأنها تخفي أمرًا ما) ابتسم ثم أضاف:

- كنت أمازحك!

المشهد الخامس

شرارة التغيير

وكأن فصل القنوط حلّ فجأة على محيّاه، بغتة، على حين غرّة بدون أبسط تمهيد، جلس الكاتب الشهير توماس خلف مكتبه يعتري وجهه سخطٌ وانقباضٌ مريب، جعله رغم صمته يتلفّظ بضغينةٍ وكراهيةٍ جارفةٍ لمستوى انفقأت له هيئة الطاووس المحيطة به، وكان ذلك لصالح تشكّل هيئة أخرى أخذت تحلّ محلها بشكل تدريجي، لم تبشّر بيتر بخير.

ومع مرور بضع لحظات، بدأ بيتر يستشعر بتسارع تكوّن الهيئة الجديدة مكان تلك المفقوءة، وتبيّن له أنها هيئة شيطان. "لا بد من أنني أبالغ نوعًا ما" أضاف في سرّه والقلق يعتريه من أعلى رأسه حتى أسفل نعل حذائه المُبعد.

- كان وسألتني "كيف حالك؟" (السَيّد، بغضب غير مبرر) "نطق بصوته لا بصوت شيطان" علّق بيتر في سرّه مُتهلل الوجه، "ولكنه نطقها بهيئة شيطان" أضاف في سرّه مضطربًا.

- نعم، كان ذلك في بداية حديثنا، لا بأس .. (بيتر، متوجسًا) كعادته طوال فترة حواره مع بيتر، قاطعه السّيد قائلًا:

- إنني في أفضل حال، أشعر بالرضا التام عن حياتي، أمارس الرياضة صباح كل يوم، كما واقرأ مساءًا قبل النوم. (السَيّد، باستهزاء) ضحك السَيّد ببساطة غير معتادة منه، ثم أضاف:

- أهذا ما تتوقعه مني؟ أن تستمع إلى سقف التنوع الحواري الذي حظيت به مع أشباه العامّة طوال عملك معهم كصحفي؟ (السَيّد، بازدراء) بشق الأنفس، تمكن بيتر من التبسّم مجاملةً رغم اضطرابه مما مضى، وتوجسه مما يجري، وقلقه الطاغي مما هو قادم. وفي

المقابل نهض السَيّد من كرسيه نهوض الأسد، ضاربًا سطح مكتبه البريء بكفيّه ومخالبه العشرة بكامل قوّة من بلغ أشده للتوّ واللحظة. زأر بعدها قائلًا: - لا لست كذلك. فمنذ ولادتي لم أكن في حال جيدة قط.

نهض السَيّد من مكانه مقتربًا من واجهته الزجاجية، ثم أضاف وكأنه يخاطب بهدوء صورته المنعكسة على الزجاج: - كانت ولادتي بمثابة الختم الذي وثّق عقد اتحاد أكبر ثريّين من أثرياء براغ، العقد المتمثل بزواج والديّ؛ الوريث الوحيد لأثرى أثرياء غرب نهر فلتافا، والوريثة الوحيدة لأثرى أثرياء شرق ذات النهر.

كطفل، ضحك السَيّد ثم أضاف:

- تعود هذه القصة لما يزيد عن الثمانين عامًا.

تابع بهيئة الشيطان، بينما كان بيتر يتمنى التخفّي كحرباء:

- وحدث في أحد الأيام أن اجتمع الثريّان للتباحث في المضاربة المحتدمة بينهما في كواليس الأسواق التشيكيّة، بهدف البحث عن طريقة تبارك ثرواتهما بوتيرة أسرع مما كان يحدث وقتها.

ولكونه الحل الأنجع، وافقا على الاتحاد، تمامًا كما تفعل الشركات الكبيرة مع أقرب منافسيها حينما تفقد الأمل بإزالتها من الوجود، فبذلك يربحان سويًّا على حساب الخاسر الأكبر، التشيكيّين.

كان زواج والديّ أفضل بادرة حسن ظن من الثريّين تجاه بعضهما البعض، كان بمثابة الضمان الوحيد الذي قبل به الطرفان لإتمام الاتحاد، ففيه حصرًا الدواء الأنجع لوقاية ثروتيهما من أن يمسسها أحد.

وبالفعل تم ذاك الزواج في فترة قياسيّة لم تمس مراسيمه الاحتفالية المهيبة - التي لامست سقف الخيال - بسوء، وكان ذلك في قصر كارلشتين - حيث ولدت - القصر الذي قام ثرييّا براغ باستئجاره لمدة ثلاث عشرة سنة كمتابعة صارخة للبذخ المبذول في مراسيم الزواج. صيّروا القصر لمجرد عشّ زوجيّة لثروتيهما المتوقع تكاثرها مع الوقت.

ومنذ ذاك اليوم بات زواج أبناء أثرى أثرياء براغ، محور أحاديث التشيكيين حتى اليوم. والغد. وما بعد الغد.

ولكن، كما لكل دواء أعراضه الجانبية، كان لذاك الزواج عرض جانبي وحيد صغير، تَمَّكن رغم صغره وكثرة بكائه من جمع كل آثار الأعراض الجانبية الممكنة، نعم كان توماس روزسكي العَرَض الجانبي الوحيد لزواج المصالح الذي أحدّثك عنه.

كان بيتر يشعر بالحماس كما لم يشعر قط، وفي المقابل كان السَيّد يتكلم باسترخاء لا يتناسب مع حرارة ما يقول. تعجّب بيتر بقوله: - أيُعقل أن يكون بكر أثرى زوجين في براغ "وقتها"، مجرد عَرَض جانبي! (بيتر، بذهول) - وقتها، وفي كل وقت. (السَيّد، مضيفًا بغرور)

تابع السَيّد مخاطبًا صورته المنعكسة على الزجاج:

- ولدت في صباح الحادي والعشرين من كانون الأول من ذاك العام، في اليوم المصادف للذكرى الشهرية الثامنة لزواج ثروات جَدَّيَّ. في ذات اليوم الذي أتمت فيه والدتي شهر احتفالها بذكرى ميلادها الرابع والعشرين، ولحسن حظي أو لسوئه لا أدري، كانت الولادة عسيرة للغاية، لدرجة غيّرت مجرى حياة والديّ، وبالمعيّة حياتي.

- كيف كان ذلك؟ (بيتر، كمُتطفل)

- طيلة فترة مخاض والدتي - والتي كانت جدّ طويلة - أبصر والداي صورًا من صور الفراق، الوفاة، أو بالأحرى الموت! أبصرا ما جعلهما يستفيقان من طبيعة حياتهما السابقة،

لدرجة جعلتهما يعترفان بطعم الخوف والندم حتى درجة الحسرة. (السَيّد، متابعًا دون أدنى اكتراث لضيفه المُهمَل) - لا بد من أنهما كانا عاشقين بحق. (بيتر، بتأمل) - لا لبعضهما، بل الظروف التي أنشات كلًا منهما على حدّة، ولتلك التي جمعتهما معًا في ذات القصر، عشقاها بحق.

نظر السَيّد نحو بيتر نظرةً فحواها: "لا تقاطعني"، تابع بعدها قائلًا:

- رغم الكمّ الهائل من المغريات التي أغرقتهما طيلة حياتهما، لم يتطلعا لأيّ منها قط، أمضيا حياتهما - حتى يوم ولادتي - في طلب العلم.

- جميل ونادر. (بيتر، كمُختلس)

رمق السَيّد بيتر بنظرة حادّة ممتعضًا ثم أضاف:

- لا بد من أنهما بالغا في ذلك. (السَيّد، بتحسّر) أخذ السَيّد يتجوّل في الصالة ثم تابع:

- كان من المؤسف أنهما فعلا ذلك تحقيقًا لأحلام والديهما؛ الثريين اللذين اقتنعا رغم عدم مقدرتهما على الكتابة والقراءة، بأن العلم هو الصائن الأمين الوحيد لثرواتهما من الاضمحلال، لم يفعلا لأنفسهما.

- وما المشكلة في ذلك؟ (بيتر، كمُذنب)

- تكمن المشكلة في أنهما فَجَرا مع أول هزّة تعرّضا لها. انقلبا، تطرّفا، من النقيض للنقيض الآخر. إن مثل هذا يحدث أحيانًا، فعندما يحوم الموت من حولنا ننكسر، يتحطّم شيئ ما فينا مهما كان لنا من جبروت، والكَسر حَدَث مُتجبّر. لا يَصلُح ما انكسر. نمسي أضعف أو نصبح أقوى. أما والداي فأمسيا أضعف بكل تأكيد، أظمأهما العلم فعطشا للحياة، أصابهما سُعار استغلال النبض الساري في جسديهما، فباتا في عجالة من أمرهما لتدارك قطار الحياة.

المصيبة تكمن في أنهما تمكنا من إدراكه بالفعل - قطار الحياة - ولكن على طريقتهما الـمُستحدثة. ركبا أمواج السفر بين بقاع العالم والسهر يوميًّا حتى الصباح، وأوغلا. أوغلا بعيدًا، حتى تاهت عنهما سبل العودة رغم كثرتها!

دقّت ساعة أنتيك شبيهة بساعة بيغ بن الشهيرة، كانت مستندة على الحائط المواجه تمامًا لمكتب السَيّد، كانت دقّاتها بنغمة مُعبّقة بالتاريخ، التفت السّيد صوبها حتى صمتت، ثم أضاف مبتسمًا يكاد يضحك: - وصل بهما الحال ليهلعا من مثل هذه الساعة، ظهرت عندهما أعراض داء الكرونوفوبيا - الرهاب النفسي من مرور الوقت - باتا يفزعان من فكرة عدّاد الزمن، يَجبُنان من مشاهدة العقارب وهي تتسابق بثبات للسع الدقائق وقتلها تباعًا دون توقف، وكل ذلك لمصلحة من! لمصلحة الفناء.

- إنه تطرّف فكري. (بيتر، كمن لسعته الفكرة)

- ومن قال لك بأنه ليس كذلك؟ (السَيّد، مُلتفتًا لبيتر) قهقه السَيّد مستندًا على هيئة الشيطان من حوله ثم أضاف:

- وكما لا تعلم، قد تنتقل الكرونوفوبيا جينيًّا، وبرأيي الأكثر دقة أقول إن القابلية لهذا المرض تنتقل جينيًّا بالفعل، نعم من كل بدّ، لذا تمكنا بيسر من نقل هلعهم ذاك لي، امتلكت القابليّة فأصابني تطرفهم، بتّ أشعر بالذعر من أمثال هذه.

ختم السَيّد كلماته وهو يشير للساعة ثم أضاف:

- ولكن بمفهومي أنا.

أضاف محدّقًا بأرضية الصالة الفارسية:

- ولدت في قصر كارشتين.

- إنك تكرر كلامك. (بيتر، ممازحًا بحيطة)

ضحك السَيّد كطفل حتى تجمّع الدمع في عينيه ثم نظر صوب بيتر وقال:

- إنها المرّة الأولى التي تثير فيها شيئًا من إعجابي منذ يوم ميلادك!

بشكل مفاجئ، احتدّت نظرات السَيّد حتى كاد بيتر يفرّ خوفًا منها، وعندما اكتفى أضاف بجدّية: - ولدت في قصر كارلشتين، في "مجرد" ظلّ والديّ وكنف عدد مهيب من الخدم وأُسرهم، كنت منذ أن تعلّمت النطقَ الآمر الناهي الوحيد في القصر، أما والداي فكانا مجرد ضيفَيْ شرف فيه.

ومن باب الوحدة وجدت في الخدم تسليتي الوحيدة، بينما كان تقبّلي لوجودهم مصدر رزقهم الوحيد. لذا تعايشنا مستندين على فكرة المصلحة المشتركة، مصلحتنا المشتركة. واستمرّ حالنا على ما هو عليه حتى يوم انتقالنا من القصر.

- إلى أين .. (بيتر، بفضول)

- تلَبّستني غصّة جرّاء شدّة حزني على فراق ذاك القصر، غصّة خبيثة، ومن جهة أخرى آثرت "كالعادة" إضمارها في نفسي. (السَيّد، مقاطعًا) أضاف السَيّد كجملة معترضة بصوت منخفض نسبيًا:

- رغم كمّ رواياتي التي تراها معروضة في المتاجر، وتلك التي تسمع عن اقتنائها في البيوت، أَعُدُّ نفسي إنسانًا كتومًا لا يحب البوح، سواء أكان ذلك بالكتابة أو الكلمات أو التعابير أو حتى النظرات.

- مفهوم، مفهوم. (بيتر، ككاذب)

تابع السَيّد متأثرًا:

- من فرط حزني كادت مشاعري تُفتَضَح صباح يوم رحيلنا - كنت في الثانية عشرة من عمري آنذاك - لذا ومن باب التنفيس عن نفسي، وفي سبيل إخفاء ما كاد يُفتضح من أمري،

أمرت الخدم بإعداد مائدة إفطارٍ خاصة - وكان ذلك رغم عدم قابليّتي لتناول أيّ طعام - تشمل كل ما قد يخطر على بال طفلٍ سجينٍ جائع.

- ولم ذلك؟ (بيتر، باستهجان)

- لمجرد رغبتي بتعجيزهم. ولتحقيق ذلك طلبت ما لا مثيل له على الإطلاق.

- لم أفهم! لم ذلك؟ (بيتر، باستهجان)

- كنت لئيمًا! (السَيّد، بانفعال)

تنهدّ السَيّد ثم تابع:

- وبالفعل تم لي ما أردت، ورغم تمامه على أكمل وجه لم أتحرر من غصّتي، انزعجت، انزعجت أكثر، لم أتمالك نفسي حتى خطر على بالي دعوة أبناء الخدم لمشاركتي المائدة.

- يا لحسن حظهم! (بيتر، مبتسمًا)

- هذا ما ظنّوه، حتى شبع أكثرهم جوعًا وشراهة.

- ثمّ؟ (بيتر، مترقبًا)

- أجبرتهم على المتابعة. (السَيّد، بلؤم)

ضحك السَيّد ضحكة لئيمة تابع بعدها:

- وأنا أضحك، وسط خيبات ذويهم!

- ولم كل ذلك؟ (بيتر، باستهجان)

- كنت لئيمًا، ألم أقل لك ذلك منذ قليل! (السَيّد، بانفعال) "إنك ما تزال كذلك" أضاف بيتر في سرّه مُمتعضًا، أما السَيّد فتنهّد مرّة أخرى ثم أضاف: - وبينما ترأست المائدة أضحك، تابع أبناء الخدم تناول الطعام مُجبرين يبكون. واستمرت حالنا على هذه الشاكلة بضع دقائق انتهت بفرار أحدهم وما انهمر من دموعه يسقي ما تدوسه قدماه. استوقفني أمر ذاك المتمرد عن الضحك، إذ كان لاختفائه عن أنظارنا - دون عاقبة - دور محوريّ في تحريض زملائه المتمترسين حول تلك المائدة، فإذ بهم يفرّون الواحد تلو الآخر، حالهم حال الفارّ الأول.

حملق السَيّد بعينيّ بيتر وهيئته الشيطانيّة طاغية من حوله وأضاف:

- باستثناء أحدهم.

- يا له من جريئ! (بيتر، مشدودًا)

أضاف السَيّد وعيناه مشدوهتان:

- رغم شَبَعِه تابع تناول طعامه ببرود فجّ، التفت من حوله ببطء ليتأكد من كونه آخر المتواجدين حول المائدة برفقتي، ثم تابع لدقيقتين كإضافة من طرفه، لينهض على إثرها يلعق بقايا الطعام عن أصابعه بشكل مقزز.

صدقًا كان منظره مُخزياً لدرجة جعلتني أنا من أستعرّ نيابة عن أمه. وعندما اكتفى من اشمئزازي له خاطبني بصوت نقيّ رغم طفوليّته قائلًا: "سخيف"، ثم رحل بعدها مُبتعدًا وعلى مهل.

بحق، كان تصرّف ذاك الطفل سليطًا للغاية، لدرجة لم تكن لتخطر قط على بال ذاك الروزسكي الصغير.

- وأنا أيضًا ما كنت لأتخيل سماعها! ماذا حدث بعد ذلك؟ (بيتر، بتطفّل مُستعجِب) - لا شيء. (السَيّد، بملامح مستريحة)

سار السَيّد بمحاذاة واجهته الزجاجية ليتابع مجددًا حديثه مع انعكاس صورته: - نعم، لا شيء. مضى ذاك اليوم كما تمضي أيامك، معظم الأيام التي نعيشها روتينية بتفاصيلها مهما حملت لنا من الأحداث.

- إذا اعتبرنا الرحيل عن قصر كارلشتين "المسكن" بعد ثلاثة عشر عامًا حدثًا روتينيًا، فما هي الأحداث غير الروتينية إذن؟ غزو الفضاء مثلًا؟ (بيتر، باستظراف) - إنها المرة الثانية التي تثير بها شيئًا من إعجابي. (السَيّد، ضاحكًا) بشكل مباغت، تحوّلت هيئة السَيّد لهيئة جادة أضاف بمعيّتها:

- أنّى لك فهم ذلك!

بينما تجرّع بيتر الإهانة، تابع السَيّد محدّثًا انعكاس صورته على الواجهة الزجاجية: - بدأ كل شيء في تلك الليلة العصيبة، ليلتي الأولى في القصر الجديد، بالتحديد مع اللحظة التي دخلت فيها بالنوم. كنت قبلها كباقي البشر الذين يختتمون أيامهم بالخلود للنوم، أما ليلتها فلا، لم أكن مثل أحد، ولم أختتم أي شيء. بل بدأت، بدأت كل شيءٍ عبر حلمٍ مدهشٍ غير مألوف.

عدّل بيتر من تموضعه مُترقبًا، بينما تابع السَيّد حكايته قائلًا:

- كان الحلم طويلًا بحق، بطول يوم، بدأ بكوننا في صبيحة يوم انتقالنا من قصر كارلشتين، واستمر بذات أحداث ذاك اليوم حتى المساء، حتى استسلامي للنوم.

- من تقصد بقولك "كوننا"؟ ثم ما الغريب في ما رأيته؟ (بيتر، متسائلًا) - أنا، والديّ، الخدم، ذاك المتمرد .. وأنا الآخر. (السَيّد، باستياء) - أنا الآخر! (بيتر، متعجبًا)

كشّر السَيّد عن نظراتٍ حادةٍ رافضةٍ فكرة تكرار مقاطعة حديثه. أتبع ذلك بإطلاق زفيرٍ عميقٍ تابع بعده وكأنه يخاطب نفسه: - من البديهي أن يكون كلّ منّا محور الأحداث الرئيسي في يومه.

ابتسم بازدراء ثم أضاف:

- على الأقل من وجهة نظره، أليس كذلك؟ سواء أكان ذلك في اليقظة أو المنام، لذا وجدت من الغريب بحق كوني لست محور أحداث منامي ذاك، في الواقع كنت قد فقدت مكانتي لصالحه.

- الأنا الآخر؟ الذي ذكرته للتوّ؟ (بيتر، أكثر تعجبًا) - كان يتفاعل مع معطيات حياتي بدلًا عني، من مكاني، وبجسد مطابق لجسدي. (السيّد، غير آبه ببيتر) - وماذا عنك؟ (بيتر، متعجبًا أكثر وأكثر)

- أنا! أنا كنت على مقربة منه، أراه ولا يراني سواه، أحدّثه ولا يحدثني سواه، كان وحده من يتفاعل مع وجودي.

- كشبح! (بيتر، غير مصدق)

- تبًا لتشبيهاتك منخفضة المستوى! (السَيّد، باستياء) تنهدّ السَيّد ثم تابع:

- كان أنا، أما أنا فكنت .. كالآخر.

صمت بيتر أمام كلام السَيّد الشبيه بالأحاجي، ومن حسن حظّه أنه فعل، وفي المقابل تابع السَيّد يُكلّم انعكاس صورته في الواجهة الزجاجية: - يا له من أنا! (السَيّد، فخورًا)

- ولكنه آخر. (بيتر، ممازحًا)

ضحك السَيّد، فتضاحك بيتر لذلك، مما جعله يتجرأ ويسأل:

- من هو الآخر هذا؟ أنا لا أفهم شيئًا مما تقوله. (بيتر، باستغباء) - بالطبع لا تعرفه، فوجود البديهيات بالنسبة للعوام مجرد تحصيل حاصل، بلا قيمة تذكر إلى أن ..

صمت السيّد فجأة لبعض الوقت، تشجّع بيتر فاستفسر:

- إلى أن ماذا؟

- يتم فقدانه. (السيّد، بوجه فارغ)

صمت قليلًا ثم تابع بغرور العارفين:

- الأنا الآخر هو من تحدّثه بصوتك الداخلي، إنه ذاك الذي يقبع ساكنًا في داخلك ما لم تطلبه، وحيدًا ما لم تحدّثه، الذي تستدعيه على الدوام ويستجيب، تستشيره فيشير عليك، تسأله عمّا يشتهي من الطعام وتأكل بالنيابة عنه، تخيّره بين قطع ملابسك وترتديها بدلًا منه.

إنه من يصوَر لك مغامراتك المتمناة دون تردد، ويمثّل لك أحلام يقظتك دون تحسّر، كصديق مخلص للغاية وأكثر. إنه من يعطيك لذة نكهات الطعام المُتخيل رغم جوعك، ولذة حنان الغطاء المُتخيل رغم شعورك بالبرد، كما ويعطيك لذة جرأة القفز من الأعالي رغم مكوثك في مكانك إن أدرت. وأكثر!

- أيعدّ الأنا الآخر هذا حقيقة علمية؟ أم أنه فكرة فلسفية من بنات أفكارك؟ (بيتر، باستغباء أكبر) شعر بيتر بشعورين من طرف السَيّد فيهما شيء من التناقض، الأول رغبته في طرده من الصالة، أما الثاني وهو الأهم؛ حاجته لمتابعة حديثه، وبالفعل كان ما شعر به بيتر صحيحًا. أجاب السَيّد باستياء: - السَيّد براغ لا ينتظر الحقائق العلميّة ليتحدّث بها، بل على العكس تمامًا، إنها تُبنى على ما يقوله.

- واضح. (بيتر، كمن أحس بإهانة ما)

- دعني أتابع قبل أن تتفوّه بما لا أود سماعه فتُطرد. (السَيّد، بغضب) - أبدًا، أبدًا. (بيتر، طالبًا السموحة بعد تصديقه لشعوره السابق بخصوص طرده) تابع السَيّد مُحدثًا الصالة بتفاصيلها وكأنه يستثني منها بيتر:

- قام الأنا الآخر هذا بإعادة التفاعل مع مجريات يومي، ذاتها ولكن بطريقة مختلفة، طريقة أفضل، لا بل مُثلى. مُثلى حد الكمال. وبنفسٍ راضيةٍ لا تكلّ ولا تمل، كما ولا تتلفظ بتذمّر أو تبدي أيَّ استياء.

انتاب بيتر الفضول لدرجة جعلته يعدّل من تموضعه عدة مرات متلاحقة، أمّا السَيّد فتابع بشيء من القهر: - استيقظت من ذاك الحلم وألمٌ شديد يعتصرني.

- ألم! من ماذا؟ ولماذا؟ (بيتر، متسائلًا)

- ألم الحسد الذي تلبّسني. (السَيّد، متألـمًا)

- وهل للحسد ألم! (بيتر)

- أتعرفه؟ أقصد الحسد. أم أنك تكتفي بممارسته؟ (السَيّد) - إنه .. (بيتر، محاولًا)

تابع السَيّد مشيحًا بنظره عن بيتر غير مكترثٍ بما سيقوله:

- الحسد هو تلك الشَرقَة التي يَشرَقها الوجه المُتلقي لرياح الخير التي لا تخصّه وتخص من هم سواه، فلا يكون منها إلّا أن تُسَبب قُبيل انقضائها انقباضةً محسوسةً للقلب جاذبةً إياه للعمق درجة، فتوّلد شعورًا ملحوظًا بارتفاع درجة حرارة المكان.

- أيحدث هذا حقًا؟ (بيتر، باستهجان)

ضحك السَيّد لتظاهر بيتر باستهجان الأمر وأضاف:

- وأكثر! ما قلته مجرد بداية، نهايتها تعتمد على صاحبها. متراوحةً ما بين وأدها على الفور وحدِّ استفحالها أبشع استفحال.

- كما حدث معك؟ (بيتر، بمكر)

- نعم. (السَيّد، ببرود غير المذنب)

- ولكنني لا أرى نفسي حاسدًا. (بيتر، مدافعًا بكبرياء) - بل إنك كذلك، لست وحدك، فكلنا حاسدون، نعم كلنا حاسدون، بدايةً من طفولتنا وحتى وفاتنا.

- الأطفال! هذا لا يعقل! (بيتر، مستبعدًا الاتهام) - ولم تراهم يتناحرون على كل ما تمسكه أيدي بعضهم البعض؟ حتى وإن امتلكوا كل ما يشتهون!

- إنها مجرد غيرة. (بيتر، متسرعًا)

- مخطئ!

تابع السيّد وهو يتجوّل في الصالة:

- الغيرة هي المشاعر التي تخصّ مالك الشيء المرغوب فيه خشية خسارته، فما لما أقوله والغيرة! أم أنك تخلط ما بين المصطلحات من باب تقبّلك لبعضها على حساب بعضها الآخر وحسب!

- حسنًا الأطفال كذلك، أما نحن فلا، لا نتناحر على كل ما في أيدينا! (بيتر، غير مستسلم) - ولكنكم تتناحرون على معظمها، أو بعضها في أحسن الأحوال. الفرق بين الأطفال ومن سواهم يقتصر في فقدانهم لبوصلة رغباتهم، فترى حسدهم كالأمواج المتلاطمة. مجرد رغبة في الاستحواذ المطلق على كل ما تطأه أعينهم، وفي نفس الوقت، ومهما حمل ذلك من التناقض.

أما نحن فلا، فلكل منا بوصلته الخاصة، لذا ترانا متناحرين على ما نشتهيه فقط ونسعى إليه، وقد نكتفي فعليًّا بذلك.

فعلى سبيل المثال؛ الإشارة لاجتهادٍ ما أمام مجتهدٍ يولّد الحسد داخله، وكذلك الأمر عند ذكر مهارة لاعب أمام آخر، وذكر كفاءة طاهٍ أمام آخر، أو جمال إحداهنّ أمام جميلة، أو التغني برجولةٍ ما أمام رجل.

دعني أُصعّد لك الأمر درجة؛ ألا يكون الأمر مُضاعفًا عندما يخصّ ما نستمع له من الاستحسان أحد معارفنا؟

شعر بيتر بانزعاجٍ مُركزٍّ من نفسه، لم يجد له تبريرًا سوى اعترافه بكونه حاسدًا بالفعل. أما السَيّد فتابع مُثبتًا صحة كلامه: - ألا تحسد الصحافيين الذين تعترف بتفوّقهم عليك؟ وخصوصًا ممن هم معك في ذات القناة؟ وفي المقابل ترى نفسك تشفق "بفوقيّة" لا بإحسان على من تراهم منهم من الفشلة؟

استسلم بيتر لصحة كلام السَيّد الصادم لحقيقته، وعوضًا عن الاعتراف بذلك بشكلٍ علنيّ بادر يتساءل بمكر: - وماذا عن من لا بوصلة له؟

- إنهم الأسوأ على الإطلاق، يحسدون كالأطفال من حيث المبدأ، بينما ردود أفعالهم مشابهة للثيران الهوجاء التي تتلاعب بها خرقة حمراء.

تضاحك باشمئزاز ثم أضاف:

- وأفظع ما تجده فيهم هو تذمرهم من حسد المجتمع لهم.

المشهد السادس

حرب مُستعرة

توجّه السيّد توماس نحو مكتبه، وجلس على مقعده جلوس من يُفرِغ عن كاهله أطنانًا من حمولة ما، "إنه يتألم" قال بيتر في سرّه مُندهشًا، بينما كانت تعابير الشحوب تتّضح بتسارع على وجه السيّد.

تابع الكاتب الشهير قوله بهيئةٍ مُنهزمة على غير العادة:

- ظننته حُلمًا عابرًا، ازدريته بادئ الأمر وتناسيته، ولكن تبيّن لي بمجرّد مرور بعض الوقت أنني لن أتمكن من ذلك، نعم فشلت بتجاوزه. وكيف تراني لا أفشل وأدق تفاصيله سبق وتجذّرت في مخيلتي!

كما أن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد وحسب، إذ وجدته - ذاك الأنا الآخر المُحتَلّ لمنامي - يؤثر طيلة اليوم بإيجابٍ في طريقة تفكيري، في كل كلامي وفي جميع تحركاتي، جعلني أكثر تأدبًا وأمهر، ومبادرًا في الأقوال والأفعال حتى أبعد حد، والأهم من كل ذلك أنه مكّنني من استغلال الوقت أنجع استغلال. باختصار؛ صيّرني لإنسانٍ أفضل رغمًا عن نفسي. وكان كل ذلك دون أن تراوده فكرة التشاور معي! أرادني مثله، فصرت كذلك، نعم صرت مثل الأنا الآخر خاصتي.

نهض السَيّد من مكانه ليجلس قبالة بيتر، الذي تمكن مرة أخرى - رغم خجله - من تفحص ملابس مُستضيفه وخصوصًا خفّه الأبيض، وأثناء فعله لذلك كانت حسرة تَخَلّيه عن حذائه تحرق كل ما تبقى من كرامته.

كان بيتر وقتها قد بدأ يستشعر في صوت السَيّد ولغته نوعًا ما من اللطف، أو لربما الضعف أو شيئاً ما يشبه الحاجة، تأكّد له الأمر أكثر عندما انحنى السَيّد بجذعه للأمام ليقترب منه ويضيف وكأنه يُسرُّ بأمر ما: - وحدهم الخدم من عاينوا تَغَيُّري، نعم، رغم معرفتهم بطبيعة نشأتي كانت ساعات الصباح كافية بالنسبة لهم ليتوسّموا الخير المُحدث في نفسي.

- اسمح لي بالتعبير عن استهجاني لإتيانك على ذكر الخدم ونظراتهم، فلا أظن أمثالهم يُؤثرون على من هم من أمثالك. (بيتر، كمُحلل خبير) - بالطبع لا يفعلون، ولكنني لا أنكر أن نظراتهم طوال ذاك اليوم، كانت تُغريني.

- نظرات الامتداح أم الشكر؟ (بيتر، كمحقق)

- لا هذه ولا تلك. بل النظرات بحد ذاتها هي ما كانت تغريني، وذلك ليس لكونها صادرة من أعينهم، لا بل لكونها تجتمع لديّ وأنني أنا المُستحق لها. بإمكانك القول بأنني استشعرت من جديد بكوني المحور في حياتي.

اقترب السَيّد من بيتر أكثر وأضاف مُخفضًا صوته:

- ألم فقدان البديهيات يفوق ألم كُلّ الفقد.

- كالصحة مثلًا؟ (بيتر، باستذكاء)

- بالطبع، هذا ما يذكره أمثالك من الأمثلة! (السَيّد، باشمئزاز) نهض السَيّد بعنفوان خَلّق من جديد هيئة الطاووس من حوله وأضاف بصوته الجهوري:

- بل كأحد الزوجين، الأحمق منهما الذي لا يدرك حقيقة مكانة نصفه الآخر، آخذًا بعين الاعتبار بديهية وجوده وديمومتها، فتراه يتحطم بشكل مضاعف عند فقدانه لشريكه.

نظر السَيّد بحدّة تجاه بيتر وأضاف:

- وما زمام الأمور التي فقدتها في منامي إلّا مثال على ذلك.

تساءل بيتر في سرّه عمّا إذا كان هنالك فرق نوعي بين المثال الذي ذَكَره والمثال الذي ذكره السَيّد دون أن يصل إلى نتيجة!

أما السَيّد فتابع كلامه وهيئة الطاووس تتلألأ من حوله:

- وفي مقابل ذلك تُختصر الصورة المشرقة من شدّة ألم فقدان البديهيات في كونها تكافئ مدى لذّة استردادها، وهذا بالضبط ما حدث معي عندما استرددت محوريّة حياتي، كانت لذّتها بالفعل لذّة مميزة، نكهة جديدة، مُركّزة وأكثر فاعليّة، مكّنتني من التوجّه للنوم وكلمة "سخيف" الصادرة من فم ذاك المتمرد تقرع طبول الحرب في مخيلتي.

- ألم تكن قد تجاوزت أمر ذاك الصبي بعد؟ (بيتر، باستهجان) - لا، ولا حتى يومي هذا! (السيّد، بِغُلّ)

تجّول السيّد في صالته صامتًا للحظات ثم تابع بعدها:

- من شدة بذلي وعطائي ذاك اليوم شعرت بكوني أعتلي قمة هرم سعادتي، خصوصًا وأنا أتوجّه للنوم، لدرجة جعلتني أُمنّي نفسي برؤية الأنا الآخر خاصتي مرةً أخرى بقصد ردّ اعتباري أمامه، فأخبره بأنني أدّيت بأفضل ما عندي، فأتحدّاه بأن يأتيني بما هو أفضل.

- يا لك من صاحب إرادة لتعمل ما عملت في الصباح وتقصد القتال في المساء! (بيتر) - لأنني من الخاصّة، يبدو أنك بدأت تتفهم ذلك أخيرًا. (السَيّد، كقنّاص) ندم بيتر على مداخلته التي رُدّت عليه كإهانه، أما السَيّد فتابع بصوت منخفض:

- وبالفعل، كان لي ما أردت، رأيته مرةً أخرى كما كنّا في ليلتنا الأولى.

أضاف كجملة معترضة:

- كنت كشبحٍ كما سبق وشبّهتني!

ضحك السَيّد باستخفاف ثم أضاف:

- اعذرني ولكن تشبيهاتك بالفعل ذات مستوى منخفض.

تابع السَيّد بجدّية:

- بالرغم من تصوري المُسبق عن لقائنا، استطاع الأنا الآخر مباغتتي، إذ وجدته يصول ويجول بالأحداث المتوقعة في يومي التالي لا في يومي السابق كما توقعت؛ استيقظ من نومه أبكر وأنشط مما أفعل، كان مبتسمًا، لا بل بشوشًا، كان شعلةً من طاقةٍ إيجابيةٍ أنارت القصر، ذهب لمدرستي على الموعد الذي لم ألتزم به قط، ذهب بقصد العلم لا لتمضية الوقت كما كنت أفعل.

وحتى عندما عاد، كان ما يزال بشوشًا وبدت طاقته لا تنضب، كما ولم يكتفِ بذلك! إذ عرض المساعدة على كل من مرّ به في طريقه إلى غرفتي، حيث تابع دراسته حتى نام محافظًا على بشاشته.

- واستيقظت أنت! (بيتر، باستذكاء)

- نعم استيقظت وغضبي يزلزل جسدي، كرهته أكثر، وشعرت بالضعف أكثر وأكثر، حاول أن تتخيّل معي - إن أمكنك ذلك - أن تحشد كل حلفائك وقواك وعتادك لأقصى الغرب، حيث من المفترض أن تشتعل معركتك المصيرية ضد عدوّك الأزلي، وهناك عندما تصل المكان في الزمان المحدد تجده خاليًا من كل شيء.

- يا له من شعور. (بيتر، باندفاع)

- لم أُنهِ فكرتي بعد! (السَيّد، بلؤم)

تمنى بيتر انشقاق الأرض ما بين أقدامه ليغطس فيها، وفي المقابل تابع السَيّد دون أدنى اكتراث للإحراج الذي تسبب به لبيتر: - فتَعبُر حَشَرةٌ ما. حشرة طائرة صغيرة قذرة، لتُبلغك ببالغ التهكّم وعلى عجالة بأن المعركة التي تقصدها قد انتهت منذ لحظات في أقصى الشرق، حيث كنت من قبل.

ضحك كطفل رضيع ثم علّق قائلًا:

- يا له من شعور! أليس كذلك؟ هذا بالضبط ما شعرت به.

أومأ بيتر بموافقة كلام السَيّد بينما كانت أمنية انشقاق الأرض ما تزال تتأجج في نفسه. أما السَيّد فتابع بعنفوان: - ولكنني رغم ذلك لم أستسلم، اتخذت قراري بمتابعة معركتي الخاصة مع الأنا الآخر خاصتي، لذا انطلقت في يومي الجديد أتطلّع لفعل الأفضل.

- لا بدّ من أنه كان يومًا عصيبًا. (بيتر، مُدليًا مداخلته بتردد) - فاجأني باقتحام المستقبل! ما أظنني كنت قادرًا على منافسته لولا ما اكتسبته من الخبرة أثناء مرافقتي الصامتة له في مناماتي.

- "معظم الأيام التي نعيشها روتينية بتفاصيلها مهما حملت لنا من الأحداث". لا بد من أنه يؤمن بذات المبدأ. (بيتر، بثقة نوعًا ما) - إنها المرّة الثالثة التي تثير بها شيئًا من إعجابي، لا بد من أنك تطمع في المرّة الخامسة ضمن هذا اللقاء، أليس كذلك؟ (السَيّد، باندهاش) ابتسم بيتر ابتسامة طالب نجيبٍ استسخف نفسه بعدها، وفي المقابل جلس السيّد خلف مكتب وأضاف: - ومنذ ذاك الوقت، ونحن نتشارك أيامنا، أنا والأنا الآخر، كانت أيامنا كسلسةٍ من مباريات كرة قدمٍ متعاقبةٍ لا تنتهي، شوط لي وشوط له، وهكذا دواليك.

- وفي هكذا حالة، تصبّ نتائج كل المباريات في صالحك. (بيتر، حاسدًا) - لم يكن هذا ما يعنيني، فإحراز أكبر عدد ممكن من الأهداف هو ما كان يعنيني. من سيحرز أكثر، أنا أم هو!

آثر بيتر الصمت لاستهجانه ما سمعه، وفي المقابل تابع السيّد قائلًا:

- كان لاعبًا محترفًا في الحياة، وسيبقى ماهرًا ما حييت.

- أتقصد القول أنه كذلك حتى بالنسبة لك أنت "السيّد براغ"؟ (بيتر) - وبالنسبة لك أنت أيضًا، وبالنسبة للجميع! (السيّد ضاحكًا) كره بيتر نفسه لعدم قدرته على صد أيّ من إساءات السيّد له، وفي المقابل تابع الكاتب الشهير قوله: - مرّت الشهور الثلاثة الأولى - من بعد ظهوره في حياتي - غير متكافئة فيما بيننا البتة، كان متفوّقًا عنّي بمراحل كثيرة، إلّا أنني أثناء الثلاثة التي تلتها تمكنت من تقليص الفارق بيننا لدرجة أنني بدأت أرى نفسي على مقربة منه.

- أتجاوزته؟ (بيتر، متحمسًا)

- لا، كدت أتعادل معه وحسب. (السيّد، بحسرة)

- ماذا حدث بعد ذلك؟ (بيتر، بفضول)

- أخذ يجري. (السيّد، ضاحكًا)

- ماذا؟ (بيتر، باستهجان)

- ببساطة، أخذ يجري. (السيّد، بحقد)

تنهد السيّد ثم نهض، ثم عاود الجلوس خلف مكتبه وتنهّد، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه: - كم فاجأني يومها! كنت قد لامست تجاوزه بما أنجزته في ذاك اليوم، فإذ به يتهرّب من مواجهتي بتوجهه للجري، سألته يومها كثيرًا عمّا كان ينوي فعله، إلّا أنه لم يبح لي بشيء.

- وماذا فعلت؟ (بيتر)

- استيقظت بقلبٍ خامدٍ حاله حال بركانٍ خَمَد منذ أكثر من ألف سنة. تساءلت بيأسٍ عمّا عليّ فعله - إن كان هناك ما يمكن فعله! - كنت شديد الحيرة، كحيرة من يجد نفسه على

غفلة في جسد أخطبوط كبير يريد تحريك إحدى أذرعه للمرة الأولى. ولكنني رغم ذلك سعيت في يومي ذاك أفضل سعي كما عادتي الـمُحدثة، ثم توجهت إلى منزلي واليأس يتخللني، وهناك، تحت ظل بوابة قصري وجدتها!

- وجدت ماذا؟ (بيتر، مُتسائلًا)

- أخذت أجري مثله، جريت دون سبب أو هدف أو طموح أو حتى روح. جريت كثيرًا، حتى بعد أن انهارت بنيتي ونفد مني مخزون عرقي، ورغم ذلك تابعت الجري حتى فرّت الشمس مشفقةً على حالتي. وحده حقدي عليه كان الطاقة المشغّلة لجسمي.

- أتراك تفوّقت عليه في تلك المرة؟ (بيتر)

- هذا ما ظننته، ولكن كما هو متوقع منه، فعل مساءًا ما فعلت وأكثر.

- تابع الركض؟ (بيتر)

- لأربع سنوات!

- يا له من عنيد. لا يعقل! (بيتر)

- من؟ (السيّد، بتركيز مصطنع)

- الأنا الآخر، خاصتك. (بيتر، خجلًا نوعًا ما)

ضحك السيّد حتى أرتوى ثم أضاف:

- ها قد بدأت تتحدث عنه وكأنه شخص مستقل!

شعر بيتر بمستوى غباء لم يسبق أن شعر به، أما السيّد فتابع وإيمانه بالأنا الآخر خاصته في أعظم درجاته: - وفي أحد الأيام المفصلية في حياتنا، وجدته يدوّن اسمه في مسابقة

الجمهورية للجري، عن فئة ما دون الثمانية عشرة عامًا.

- كنت في السادسة عشرة من عمرك، ماذا فعلت وقتها؟ (بيتر) - فعلت مثله، فلا خيارات لديّ لأتخيّر من بينها.

- وماذا فعل؟ (بيتر)

- فاز بالسباق.

- وماذا فعلت؟ (بيتر)

- ألم أقل لك منذ قليل! فعلت مثله، فلا خيارات لديّ لأتخيّر منها. وبذلك حصلت على لقب أفضل عدّاء في الجمهورية عن تلك الفئة، تعادلنا في ذاك الأمر.

- وماذا فعلت بعدها؟ أقصد ماذا فعل؟ (بيتر)

- بدأ يتدرب على لعبة الشطرنج!

- ماذا! والجري؟ (بيتر)

- ولّى من دون رجعة. (السيّد، دون اكتراث)

- وماذا فعلت بعد ظهور الشطرنج في حياة الأنا الآخر خاصتك؟ لا بد من أنك فعلت مثله؟ (بيتر) - بالطبع، لتمضي من عمرنا أربع سنوات أخرى على ذات الوتيرة، أستيقظ كل صباح، أدرس حتى الإشباع، أفعل الخير المطلق للجميع دون انتظار ولا حتى كلمة شكر، ثم أعود إلى غرفتي حيث أتدرّب على لعب الشطرنج وإتقان فنون اللعبة حتى أنام. إلى أن ..

- إلى أن وجدته في أحد الأيام يدوّن اسمه في مسابقة الجمهورية للعبة الشطرنج، لفئة ما دون الثانية والعشرين عامًا، وفعلت مثله. (بيتر، مقاطعًا) - بالضبط. يبدو لي أنك الآن في

أفضل حالاتك. (السيّد، مُستهترًا) - ولكن، أيعقل أن يكون قد فاز بالمسابقة؟ (بيتر، بترقّب) - وفزت مثله، لأحصل على لقب أفضل لاعب شطرنج في الجمهورية عن تلك الفئة.

- أسبق وتباريت معه؟ بالشطرنج، أقصد الأنا الآخر خاصتك؟ أقصد أثناء نومك؟ (بيتر، كمجنون يحاور مجنون آخر) - لا، يبدو أننا اتفقنا دون اتفاق على تحاشي المواجهات المباشرة فيما بيننا.

صمت قليلًا ثم أضاف:

- كلانا خشي ذلك!

- وماذا فعل بعد حصولك على لقبك الثاني؟ (بيتر، بفضول) أجاب السيّد بلكنة متحسرة عوضًا عن استخدامه للكنة منتصر:

- بدأ يسبح!

- لا تقل لي أنك فعلت مثله لأربع سنوات حتى سجل اسمه في مسابقة الجمهورية للسباحة؟ (بيتر) - وكلانا فاز بها، لأحصل بذلك على لقب أفضل سبّاح في الجمهورية عن تلك الفئة.

- يا لها من إنجازات! بعمر الأربعة والعشرين، تحصل على ثلاثة ألقاب محلية في ثلاث مجالات متباعدة أشد التباعد. اسمح لي بسؤال لا أستطيع كبحه؛ ما الذي مكّنك من ذلك؟ الالتزام بالتمارين اليومية مثلًا؟ (بيتر، معبّرًا عن اندهاشه) - التمارين اليوميّة وحدها لا تكفي، عليها أن تتزامن مع العزيمة والإلحاح للوصول للهدف، وبدرجة أعلى توافر الإمكانيات الكافية للفرد، والأهم من ذلك "النصيب"!

- النصيب! أحقًا يؤمن السيّد براغ بالنصيب؟ (بيتر، بقصد الاستهزاء) - بالطبع أؤمن به، خصوصًا عندما يكون نصيبك بأن لا تتواجه مع أسطورة مثلي. (السيّد، ضاحكًا) تابع السيّد

ضحكاته أثناء استهجان بيتر من مجريات الحديث، ثم أضاف:

- لا تقلق، اعتزلنا جميع الرياضات الجسدية بعد ذلك، أظنه يئس من إخفاقي كما يئست أنا من إمكانية استسلامه.

- اعتزلت! ولكن ألا تعدّ الجري والشطرنج والسباحة هوايات بالنسبة لك؟ أيعتزل المرء هواياته؟ (بيتر) - لا لم تكن هوايات، لا بالنسبة لي ولا حتى بالنسبة له، كانت مجرّد التزامات. (السيّد) نهض السيّد مُجددًا ليتجه صوب مكتبته، ومن على مقربة منها أضاف:

- حتى وإن كانت كذلك في بدايات ممارستها، إلّا أن أي تفرّغ خاص أو أي التزام مبذول من أجل هواية ما كافٍ لقتلها وتحويلها إلى مجرد واجب. فالهواية لا تمارس سوى لسطوة قوةٍ مبهمةٍ جامحة، تجذب الذهن الصافي "طواعيةً" لفعل شيء ما قادرٍ على بثّ البهجة العارمة في النفس.

- وما ضير التفرّغ والالتزام بما تقوله؟ (بيتر)

- أيعقل أن يبثّ التفرّغ والالتزام البهجة في أي نفس؟ بالطبع لا، بل يبثان الألم والامتعاض والتبرّم والضيق. وأكثر.

- وأكثر! (بيتر، مشوشًا)

- بشكل عام، الجري والشطرنج والسباحة هوايات، أتفق معك، ولكن ألا تتفق معي بكون ممارستها لأربع أو خمس ساعات متواصلة بشكل يوميّ ولمدة سنوات صنفًا ما من أصناف العذاب؟ وخصوصًا عند ممارستها في ذات الأماكن! وأحيانًا في ذات الأوقات! (السيّد) وقبل أن يدلي بيتر بتعليقه، أضاف السيّد كجملة معترضة:

- على سيرة ذكر الأماكن، تمارس الهوايات في الأماكن العفوية، العفوية فقط! بين الأقران من محبيها. فعلى سبيل المثال؛ كرة القدم تمارس في الساحات العامة، والسباحة تمارس

عند الشواطئ، والغناء أثناء الاستحمام، وكل ما عدا ذلك يعدّ التزامًا.

ابتسم بيتر عند سماعه أمر الغناء أثناء الاستحمام واستذكر نفسه، أما السيّد فالتفت نحو بيتر وأضاف: - أحقًا تصدق أولئك ممن تجري معهم المقابلات وهم يصرّون على أن أعمالهم لا تتجاوز كونها هوايات؟ ألا تلاحظ أنه حتى الفاشلين منهم - وما أكثرهم - يصرّون على ادعاء ذات الادعاء؟ أحقًا يتابع الفاشلون ما يفشلون به رغم كونه "هواية"؟

- ولكن لا بد وأنك استمتعت لوقت ما في ممارسة أيّ من تلك الرياضات أثناء تلك الفترة الطويلة؟ (بيتر) - لا. (السيّد، ببرود)

- ولم تابعت فيها! (بيتر، غير مصدق)

- تسألني وكأنك لا تعلم؛ لم أكن لأقبل فكرة تعرّضي للخسارة أمامه، كما ولا أنكر وجود رغبة جامحة اجتاحتني للتفوق عليه.

- أحقًا قد تكون المنافسة مع الآخرين قوّة محركة إلى هذه الدرجة؟ (بيتر، ببراءة) - آخرين! (السيّد، ضاحكًا)

بشكل مفاجئ، تابع السيّد كلامه بحنق جارف لم يفهم بيتر سببه:

- الأسطورة لا تتنافس سوى مع نفسها، وبملء إرادتها، ويكون ذلك طمعًا في العلامة الكاملة لمجرد كونها علامة الكاملة. أما منافسة الآخرين التي تتحدث عنها فهي لك ولأمثالك من العامة وأشباههم، وتراها تحتدم رغبةً في إرضاء قوالبكم الاجتماعية، لا لشيئ سوى للطمع في التفوّق النسبي بينكم لا أكثر.

وبالرغم من عدم إجابة السيّد على تساؤل بيتر، حاول بيتر امتصاص غضب السيّد غير المتوقع متسائلًا: - جري، شطرنج وسباحة، ماذا بعد؟

ارتدى السيّد نظارته ذات العدسات الدائرية ثم أجاب:

- كنت قد انضممت أثناء حقبة الشطرنج إلى الجامعة، إلى كلية تشارلز الطبية، لدراسة تخصص الطب.

- يبدو أنك تمكنت من الاختيار ذات مرّة! (بيتر، بلؤم)

ضحك السيّد ضحكة يائس ثم أجاب:

- بالطبع لا، حتى اختيار هذه الكليّة لم يكن من طرفي، رغم أنه كان عن طريقي، إذ مرّ على مسامعي ذات يوم صعوبة الانضمام إلى تلك الكلية، وسمعت أيضًا عن وعورة طريق التخرّج منها. لذا وجدته في إحدى الليالي يفاجئني وينضم إليها.

- ما كنت ستختار لو كان الاختيار اختيارك؟ (بيتر، متسائلًا) - كنت أطمح لامتهان الطيران، نعم الطيران، ففي فكرة التحليق تجسيد دقيق لمشاعري وأحاسيسي، فأنا أحب الحياة في الأعالي، ولوحدي، لا من أجل التباهي أمام أحد، ولكن لوضع نفسي موضعها الملائم.
(السيّد، بنغمة حالم) - ولكنك لا تكون وحيدًا في الطائرة! (بيتر، باستخفاف)

- كلهم عابرون. (السيّد، باستخفاف أكبر)

صمت ثم أضاف:

- كما أنهم لا يمتلكون دفة القيادة مثلي!

"يا له من تناقض! طب وطيران. مع تحفّظي على سبب رغبته في الثانية" قال بيتر في سرّه ثم أضاف: - وكيف جرت الأمور معكما في كلية تشارلز؟ بالتأكيد كانت العلامة الكاملة طموحكما.

- بل كانت النتيجة التي حصلنا عليها، فهناك فرق ما بين الطموح المرتبط بالقمة والنتيجة المقصود بها الثمرة أو المحصلة لمستوى اجتهادك. وكما هو متوقع منا تخرجّنا حاصلين على المركز الأول.

- بفارق مريع عن صاحب المركز الثاني أليس كذلك؟ (بيتر) - لا أمتلك أدنى فكرة عن صاحب ذاك المركز. (السيّد)

"لا بدّ من أنه يمارس الغرور كهواية" علّق بيتر في سرّه، ثم تساءل:

- ماذا فعلت أو بالأحرى ماذا فعلتما بعد إتمامك لدراستك الجامعية؟ (بيتر، بقصد البحث عن أيّ مدخل لعالم السيّد الأدبي) - قادني للعمل في أقدم مستشفى في براغ.

- كيف وحدث أن علم بوجوده؟ لا يعقل أن يكون قد تنبأ به، أليس كذلك؟ (بيتر) - كان قد ألقى السيّد جيري - مالك ومدير ذاك المشفى - كلمةً في حفل تخريج الكليّة، فأُعجب الأنا الآخر خاصتي به وقرر العمل معه.

- أحقًّا حضرت ذاك الحفل! (بيتر، مقاطعًا)

- ذهب قبلي، فذهبت مثله.

- الأنا الآخر خاصتك؟ (بيتر)

- ومن غيره! (السيّد)

- وكيف كان انضمامك لذاك المستشفى؟ (بيتر، منسجمًا)

- ما زلت أذكر ذاك اليوم الذي قصدت فيه مكتب السيد جيري، كان مذهولًا لدى سماعه طلبي للعمل ضمن فريقه، خصوصًا لمعرفته المسبقة بوالديّ وبمقدار ثرائهما، إذ كانا على مقدرة لبناء أحدث مستشفى في الجمهورية ليكون ملكي، لا كي أعمل به كمجرّد موظّف. لذا قابل طلبي بترحيبٍ شديد تضمن اتفاقنا على كافة التفاصيل المتعلقة بالعمل.

وفي نهاية حديثي المقتضب معه، وبالتحديد عند لحظة خروجي من ذاك المكتب، لمحت عيناي صورة كبيرة للسيد جيري مع من بدت ابنته وهما في حفلةٍ بدت حفلة تخرجها من

الجامعة.

- أكانت جميلة؟ (بيتر، بفضولٍ شرير)

- لست أنا من يقيم جمال الآخرين. (السيّد)

"إنها المرة الأولى التي يتواضع فيها منذ بداية حديثه" أضاف بيتر في سرّه، أما السيّد فتابع: - فأنا أترفّع عن ذلك لضيق الوقت المسموح هدره في حياتي.

"يا ليتني أتعلّم من أخطائي!" أضاف بيتر في سرّه مرةً أخرى نادمًا على حسن ظنّه بالسيّد. تساءل بعد ذلك: - لا أظن أن ظهورها كان عابرًا بالنسبة للأنا الآخر خاصتك، ولا أظنه كذلك بالنسبة لك أنت أيضًا. أليس كذلك؟

- معك حق، كعادته فاجأني فور استيقاظه بتوجّهه لخطبتها، وتم له ذلك!

- وماذا عنك؟ (بيتر، مندهشًا)

- فعلت مثله، توجّهت فور استيقاظي لخطبتها، وتم لي ذلك.

- خطبتما ذات المرأة! (بيتر، باشمئزاز)

- تبًا لك! ألست والأنا الآخر شخصًا واحدًا؟ (السيّد)

- ولكنه آخر! (بيتر، غير متقبّلٍ للفكرة)

ضحك السيّد ثم علّق:

- يا لك من محاور!

ابتسم بيتر رغم شعوره بالغباء ثم قال:

- أخجلتم تواضعي!

تابع السيّد سرد حكايته بطريقة أظهرت حاجته لسردها فقال:

- تزوّجنا، أنا ومارتينا جيري بعد خطوبة دامت عاماً تقريبًا وكنت وقتها قد أتممت السادسة والعشرين من عمري. وتم ذلك في حفل أسطوريّ لا يقلّ مستواه عن حفل زفاف والديّ.

"يبدو أن السيّد لا يفوّت فرصة للتباهي في الجزيئيات الاجتماعية التي تخصّه" علّق بيتر في سرّه ثم تساءل: - ترى كيف كان الزواج بالنسبة لك؟

- كغيره من الالتزامات التي تكبّدتها منذ ظهور الأنا الآخر في منامي.

- يبدو أن وجهة نظر السيّد براغ حول الزواج لا تختلف كثيرًا عنها بخصوص الإنجاب، أليس كذلك؟ (بيتر) - ولكن مع وجود عاملٍ مهمٍ قدر على قلب المعادلة!

- ألا وهو؟ (بيتر)

- مارتينا روزسكي، لقد وُفّقت بها، وُفّقت لكونها مارتينا!

- "وفّقت" إنها المرة الأولى التي تتفوه بها بكلمة كهذه طوال لقائنا! (بيتر) - كيف لا أقول ذلك وهي الاختيار الوحيد الذي دخل حياتي دون قدرتي على التحكّم بما يترتب عليه من النتائج.

- ماذا حدث بعد ذلك! (بيتر)

- عشنا سويًا أربعة أعوامٍ من أمثل ما يكون، وعلى جميع الأصعدة، كما وأنجبنا خلالها طفلين، وصل بي الحال لأتيقّن من كوني أمهر طبيب، وأفضل زوج وأمثَل أب.

- أربعة أعوام مجددًا! يا للرباعيات التي حاصرت حياتك! (بيتر) تابع السيّد دون اكتراث لبيتر وملامح الشحوب تتوضّح على وجهه:

- استمرت حياتنا في مثاليتها حتى ذكرى ميلادي الثلاثين، احتفلت بي مارتينا هي والطفلان أدفأ احتفال، أسعدوني بحق، أظنها المرة الأولى التي شعرت فيها بالسعادة المثلى، ولذلك توجهّت للنوم غير آبه بشيء، ولا حتى بأمر الأنا الآخر خاصتي.

- ولكن في ذلك صورة من صور انتصارك عليه، أليس كذلك؟ (بيتر، بفضول) نهض السيد من مكانه ليخاطب ما بدا وكأنه ملك الموت:

- ورغم ذلك فاجأني!

- كيف! (بيتر، بذهول)

- بدأ يكتب!

المشهد السابع

المصالحة التاريخيّة

كعجوزٍ لا يكاد يستطيع الحركة، ترنح السيّد نحو واجهة الصالة الزجاجيّة في مشهدٍ استوجب من صحفي العام النهوض لمساعدته، ورغم ارتباكه؛ انطلق بيتر باتجاه السيد ليمسك يده بقصد إسناده، وعندما فعل، وعوضًا عن إسناده، تفاجأ بيتر برعشة تجتاح جسده أحرجته. "كم يُكْبِرني هذا الرجل في عينه" قال السيّد في سرّه مُختالًا، ثم عوّض بيتر بابتسامة اعتاد مُتلقيها على ما فيها من اللؤم.

وبعيد إيصاله للمكان المنشود، اجتهد بيتر وجلب للسيّد أحد المقاعد المتواجدة في الصالة، وبدلًا عن شكره والجلوس عليه، قام السيّد بتفحّص المقعد بشكل مصطنع، ثم طالب بتبديله. "ما كان عليّ توقع غير ذلك منه" حدّث بيتر نفسه ثم منح السيّد ابتسامةً مصطنعةً نفّذ على إثرها ما طُلِبَ منه.

تموضع السيّد على مقعده بزهوّ ثم قال ممعنًا في التركيز:

- ظهر ليلتها أمامي بصورة مغايرة، كان مُنكبًّا على مكتبي يقوم بأمرٍ ما، حييّته كما العادة، إلّا أنه لم يجب على غير العادة، اقتربت منه وإذ به يكتب أمرًا ما. وعندما سألته عمّا يكتبه تجاهل سؤالي.

- أحاولت قراءة ما يكتبه؟ (بيتر)

- بالطبع حاولت ولكنني لم أستطع، كانت الكلمات المكتوبة مختلفة عن كلماتنا، بذات الأحرف ولكن بتراتيب مختلفة تخلو من أيّة معانٍ.

- ماذا فعلت؟ (بيتر)

- كنت وقتها مُغتاظًا منه للغاية، أدرت مقعده لأواجهه وجهًا لوجه، ثم أمسكت بكتفيه، كانت نظراته فارغة كنظرات جثة، خضضّته بكل ما ملكت من قوّة ثم صرخت في وجهه متسائلًا "ما الذي تكتبه"؟

فما كان منه إلّا أن أبعد يديّ عنه برفق، ثم نهض على مهل وقال: "مللت، مللت الجري، الشطرنج، السباحة، الطب، مللت كل شيء، وكنتيجة لذلك قررت الدخول في عالمٍ جديدٍ مجهول، ودون سبب أستشعره، خطر على ذهني أمر الكتابة"، وعندما سألته عمّا يريد كتابته أجاب ببرود: "لا أدري"، ووقتها استفسرت منه عمّا إذا كان سيجد في الكتابة متعته الضالة؟ فأجاب مرة أخرى: "لا أدري".

- وماذا عنك؟ لعله فعل ذلك من أجلك، ترى هل وجدت في الكتابة متعتك الضالة؟ (بيتر)

- لا، وحده النوم ما استمتع به.

صمت السيّد قليلًا ثم أضاف:

- وتناول الطعام.

كم انتاب بيتر الذهول وقتها! أضاف متسائلًا:

- وماذا عن الكتابة؟ (بيتر، باستهجان)

- الكتابة لا، ولا أظنها هواية أحد. قد يكون الجزء المتعلق بخلق القصة مثيرًا يهواه البعض، ولكن لا بدّ من أن يُعَدّ كل ما يتبع ذلك ضنكًا، كَدْحًا، مُكابدةً وإجْهادًا.

شعر بيتر أنه يكلم سياسي العام أو اقتصادي العام أو رياضي العام أو حتى صحفي العام! أي شخص ممّن كُرّموا معه ليلة أمس، إلّا أن يكون كاتب العام! تراجع في حواره مُتسائلًا:

- وماذا بعد؟ ما الذي حدث بينك وبين الأنا الآخر خاصتك "الكاتب"؟

- لا شيء، تابع الكتابة بصمت طوال اليوم، إلى أن استيقظت.

شعر بيتر بحشرجة في صوت السيّد، كانت عيناه تتحركان بتردد خاطف، بدا حالـمًا نوعًا ما ولكن بقلق وخوف. أضاف:

- ما زلت أذكر ذاك اليوم، فتحت عينيّ وهيئة الأنا الآخر "الكاتب" لا تفارق مخيلتي، حاولت النهوض من سريري ولكنني لم أستطع، كان الغضب يسيطر على جسدي وحبال الحنق والسخط تقيدني، بإمكانك القول بأن جاثومًا أصابني.

جزعت، حقًا جزعت، حاولت مقاومة الجاثوم مرارًا ولكن بدون جدوى، كنت خائفًا كطفل صغير، ومع مرور الوقت جزعت أكثر، وأكثر. وبشكل مفاجئ انتفض جسدي من تلقاء نفسه ثم وجدت نفسي أغوص في غياهب السرير الذي كنت مُمددًا عليه، وقبيل إدراكي لما يجري لي ومن حولي، وجدت نفسي أسقط على كوم ثلج شعرت بضخامته. كان البرد قارساً والضباب يكتنف الأجواء بشكل مُحكم.

ظننت أنني متّ، أو بالأحرى أنني في مرحلة ما من مراحله، كم تمنيت البكاء! إلّا أن كلًا من الخوف والجزع حبسا دموعي.

وبعد مرور بضع لحظات قارسة، سمعت صوتًا ما يقول لي: "انهض"، فنهضت على الفور، نعم نهضت رغم خوفي وأنا أتأرجح، ووقتها فكرّت في اختيار اتجاه ما أسير فيه، إلّا أن تواجد الثلوج الطاغي جعل من كل الاتجاهات من حولي متماثلةً تمام التماثل!

ورغم ذلك سرت، سرت فوق الثلوج من دون هدى، وأثناء ذلك استشعرت قدماي مدى سُمك طبقته، كانت جد سميكة، كسماكة طبقة يأسي وأكثر. كم ارتجفت خوفًا وبردًا حينها!

إلَا أنني ورغم كل ذلك عزمت أمري على المتابعة. كنت عنيدًا حتى أقصى درجة، فتابعت إلى أن جاءت لحظة خاطفة تعثرت فيها فسقطت وتدحرجت كثيرًا إلى أن استقرّ جسمي في بركة مياه راكدة تحوّلت بعد بضع لحظات إلى نبع نهرٍ جارف.

كجيفة! جُرِفْت من قِبَل النهر كجيفة، وأثناء ذلك شعرت بانعدام شعوري، حقًا ما كان باليد من حيلة. ورغم ذلك تمالكت ما استطعت من نفسي قاصدًا الخروج من النهر، أو محاولة ذلك على الأقل!

نعم حاولت، حاولت مرارًا وتكرارًا، وبعيد إحدى المحاولات الفاشلة ظهر أمامي جذع شجرة ممتدٌّ من اليابسة إلى وسط النهر، فصارعت للتوجه إليه ونجحت بالإمساك به.

ووقتها هدأ النهر. فانتهزت الفرصة واقتربت من ضفّته، وإذ بغابةٍ كثيفةٍ تلوح أمامي لم أشهد مثلها قط. أين ذهبت الثلوج ومتى ظهرت الغابة؟ لا أدري، كل ما أدركته أنني لن أتمكن من العودة إلى سريري، على الأقل في وقت قريب من ذاك الوقت.

سحبت جسمي خارج المياه بصعوبة، ثم ألقيته على الأرض أنظر إلى الأشجار من الأسفل وما يظهر من السماء، وأثناء ذلك سمعت ذات الصوت يكرر قوله: "انهض"، وإذ بِعِدَّة أغصان مرنة تنبت من الجذع الذي أنقذني لتوّه، تتوجه نحوي بسرعة خاطفة وتلتف من حول قدمي اليمنى وتسحبني إلى وسط النهر.

مُجددًا، جرفني النهر وأنا بلا حول ولا قوّة ولا حتى أبسط أمل. أغمضت عينيّ مُستسلمًا أنتظر الموت، وعوضًا عن حدوثه المتوقع بدأت أسمع صخبًا قويًّا. كان الصخب يقترب مع مرور الوقت، شعرت بأن عليّ فتح عينيّ ففعلت مترددًا، وإذ بي أجد نفسي أمام منحنى شلالٍ أوحى لي صوته الهادر بكونه مرتفعًا للغاية.

ووقتها تسارعت سرعة جذب الشلال بشكل هائل، تمامًا كسرعة نبضات قلبي وقتها، صرخت ولكن لم يصدر صوتي، حاولت الصراخ حتى سقطت في حوض الشلال لأغوص

في مياهٍ عميقةٍ لا قعر لها.

كان خروجي من تلك المياه أشبه بالمعجزة، ورغم دهشتي من النجاة منها، أندهشت أكثر لفكرة وجودي في عين ماءٍ فقيرة في واحة بسيطة في عرض الصحراء، أين ذهب الشلال؟ لا أدري!

- ماذا فعلت بعدها؟ (بيتر)

- خرجت من المياه ألهث، واستلقيت على الأرض أنشد الراحة.

- يا لها من رحلة فريدة بتنوعها! (بيتر)

- بالفعل، تعلمت منها فكرة التنوّع، وكأنها كانت رسالة موجّهة لي.

- هل افتقدت أحداً في رحلتك تلك؟ من؟ (بيتر)

- بالطبع افتقدت، افتقدت الأنا الآخر خاصتي، كانت المرّة الأولى التي غادر فيها بؤرة شعوري؛ ففي تلك الرحلة لم أفكر به قط.

"الأنا الآخر مجددًا" علّق بيتر في نفسه ثم أضاف:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- لمحت بطرف عيني مبنىً ما، نهضت على عجالة أنظر إليه، وإذ بي أسمع ذات الصوت وهو يأمرني قائلًا: "اذهب"، فذهبت، كان البناء ضخمًا للغاية، بدا كواجهةٍ اسمنتيةٍ ممتدةٍ على طول النظر، بارتفاعٍ لا يقل عن عشرة أمتار، وكان يتوسطها بوابة خشبيّة كبيرة بنيّة اللون.

وقفت في مكاني انتظر أمرًا ما من ذاك الصوت ولكن من دون جدوى، وعندما يئست من الحالة التي كنت فيها، أخذت قراري وتوجهت إلى ذاك الباب، وببطء شديد دفعته ودخلت، وعندها انغلق الباب من خلفي من تلقاء نفسه.

"لا بد لي من المتابعة" حدّثت نفسي وأنا أتقدّم للأمام. وأثناء ذلك فهمت، نعم كان البناء عبارة عن متاهة ضخمة، ضخمة للغاية، شبه مظلمة، ومرعبة بحق.

كنت وحيداً في ذاك المكان المريب، أو بالأحرى هذا ما ظننته. إلّا أنه تبيّن لي مع توالي خطواتي للأمام أنني لست كذلك، نعم سمعت صوت أحدهم وهو يناديني، نعم لقد سمعته بأذنيّ فانطلقت أحاول المسير نحوه.

- ذات الصوت؟ (بيتر)

- لا، كان مختلفًا هذه المرة. (السيّد، بنغمة حالمة)

- حسنًا؟ (بيتر)

- كان الصوت يتضح شيئًا فشيئا، مع كل خطوة أخطوها، وأثناء ذلك تبيّن لي أنه صوت الأنا الآخر خاصتي، كان يناديني بحرقةِ من هو في خطر أو اشتياق، أو .. لا أدري.

صمت قليلًا ثم أضاف:

- كثيرًا ما وجدت في المتاهة طرقًا مُغلقةً أجبرتني على العودة والمحاولة من جديد، كم ضاعف ذلك القلق بين جنباتي، ورغم ذلك أخذت أحاول تتبع الصوت بتركيز أكبر، لا بل بتركيزٍ فائق.

للمعلومة لم تكن الجدران كلها اسمنتية، كان بعضها من الخشب، وبعضها من أشجار كثيفة متراصّة بشكلٍ مجنون، كما أنها كانت تتبدّل باستمرار من حولي ومن بعيد صوت الأنا الآخر لا يبرح مكانه.

وفي خضم محاولاتي للوصول إليه عاود الصوت الغامض للظهور وإرشادي للطريق.

- أوثقت به؟ (بيتر)

- نعم فعلت، كانت البدائل منعدمة أمامي، ومن حسن حظي أنني فعلت، فبمعيته نجوت، سرت في طريق طويلة شديدة التعرّج، طريق مُرهقة بحق، وجدت في نهايتها بوابةً مطابقة للبوابة التي دخلت منها.

- أعادك لنقطة البداية! (بيتر)

- هذا ما ظننته، آلمني الخذلان حتى أقعدني أرضًا، ووقتها وجدت الباب يُفتح ببطء، ظننتها مارتينا، ولكن تبيّن أنها لم تكن هي. بل كان هو، الأنا الآخر.

- إنها المرّة الأولى التي أسمعك فيها تُقدّم السيّدة مارتينا على الأنا الآخر خاصتك. (بيتر، متعجبًا)

- حتى أنا استهجنت ذلك، صدقًا لا أدري لم ظننتها هي، لربما كان لحدسي وجهة نظر لم أفهمها.

صمت ثم أضاف كحائر:

- أو أن لا وعيي هو من استحضرها.

- وماذا فعلت بعدما فُتحت البوابة ورأيته؟ (بيتر، كمجنون)

- تعانقنا، تعانقنا بحرارة، كانت المرّة الوحيدة التي تعانقنا فيها منذ ظهوره في حياتي. (السيّد، متأثرًا)

- ثم؟ (بيتر، مستهجنًا)

- ثم خرجنا معًا وجلسنا على مقعد خشبيّ كان منصوبًا في مكان ما وسط اللاشيء، وهناك تحدّثنا كصديقين، تحدثّنا باستفاضةٍ كما لم نتحدّث من قبل قط، كما وضحكنا من القلب، وكان ذلك رغم وحشة المكان.

صمت السيّد ثم أضاف متسائلًا:

- أنا مجنون أليس كذلك؟

"يا له من اعتراف متأخرا! "أجاب بيتر في سره ثم أجاب السيّد:

- لا، بالطبع لا، أبدًا. (بيتر، كاذبًا)

ضحك السيد بنقاء، وبدا وقتها بكامل صحته وعافيته، ثم اتجه نحو بيتر وجلس قبالته ثم أضاف:

- جلسنا سويًا، تمامًا كما نجلس الآن معًا، وانخرطنا في حديث طويل بدا وكأنه حديثٌ أبديّ، وأثناء ذلك ودون أدنى اكتراث من طرفينا، أخذت طبيعة المكان تتبدّل من حولنا بالتدريج.

بدأت مفروشات غرفة نومي تظهر في الأرجاء دون أدنى منطق، ظهرت قطعةً قطعة ضمن أماكن متناسقةٍ مع واقعها، واستمرّ الوضع على ما هو عليه حتى ظهرت جميع محتويات الغرفة، وكذلك الأمر بخصوص سقفها وجدرانها.

وبشكل مفاجئ اختفى الأنا الآخر من أمامي، وتبدّل المقعد من تحتي إلى هيئة سرير - كان ذاته سريري حيث كنت ممددًا عليه من قبل - ثم وجدت جسمي يُجبر على الاستلقاء فوقه وكأنه يعود إلى سيرته الأولى. ووقتها فقدت القدرة على التحكم بجسمي مجددًا، فزعت، نعم فزعت! وأخذت أصرخ بأعلى صوتي إلى أن استيقظت!

- يا له من حلم عجيب! (بيتر، بحماس)

ضحك السيد باستفاضة ثم أضاف:

- بل المشهد الذي رأيته عند استيقاظي كان أعجب! إذ وجدت جسمي مقيدًا بمجموعة من الأربطة المتصلة بإحدى المعدات الطبية. وبجانبي كانت مارتينا تبكي بكاء أرملة فقدت حبها للتوّ واللحظة، ومن حولنا كان طاقم طبيّ لا بأس بعدده يتبعثر في الأرجاء.

- وماذا كانت ردّة فعلك تجاه ذلك؟ (بيتر)

- انتفضت نازعًا الأربطة عن جسمي، وأخذت أصرخ مستفسرًا عمّا جرى ويجري من حولي، ووقتها انهارت مارتينا بكاءًا وسط ترحيبٍ شديد من جميع المتواجدين. وبعدما هدأت، وضّح لي أحد الأطباء بكوني قد استيقظت للتوّ من غيبوبة استمرت خمسة أيام.

- يبدو أن استيقاظك كان أشبه بمعجزة! (بيتر)

- بل كان معجزةً بالفعل.

- وماذا عن الأنا الآخر خاصتك؟ (بيتر)

- ماذا عنه؟ كان نائمًا. (السيّد، ضاحكًا يستهزىء)

- أقصد .. (بيتر، ممتعضًا من استخفاف السيّد به)

ابتسم السيّد ابتسامة مُرهَق ثم نهض نحو مكتبته يطالعها ومن هنالك أضاف بهيئة جادّة:

- كانت علاقتنا قد أتخذت لنفسها شكلًا مختلفًا.

- بمعنى .. (بيتر، مُتعجّلًا)

عاود السيد استخدام نظراته الحادّة المعبّرة عن غضبه من تكرار مقاطعة بيتر لكلامه. وكانت قد انقضت فترة لا بأس بها لم يضطر السيّد لاستخدامها أثناء حواره. تابع قائلًا:

- بمعنى أننا قررنا العمل سويًّا ولهدفٍ مشترك.

- ما الجديد في الأمر؟ لقد فعلتم ذلك عدّة مرات؛ في الجري والشطرنج والسباحة ودراسة الطب! والأهم من كل ذلك بناء الأسرة! (بيتر، مستفسرًا بتعجّب)

- فعلنا، ولكن هدفنا لم يكن مشتركًا، بل متناقضًا! أمّا عملنا في الكتابة فكان لهدفٍ مشترك.

- وما هو هذا الهدف المشترك؟ (بيتر)

- مجرد الكتابة، لا لشيء سوى ذلك.

- ولكن لِمَ لم تشتركوا في ذات الهدف في أحد المجالات التي برعتما فيها؟ أكان من الممكن توحيد هدفكما في الجري أو الشطرنج أو السباحة؟ (بيتر)

- بالطبع، ولكن لحسن ظن قرّائي أن الأمر تم في الكتابة.

- أتقصد أن دخولك لعالم الكتابة كان محض صدفة! (بيتر، مُتعجّبًا)

- نعم كان كذلك، صدفة بحتة. نعم إنني أعلن ذلك رغم وجود شعور ما في داخلي يخبرني بأنني مخطئ وأن هنالك أمرًا ما مهمًا دفعني للكتابة!

- أرجوك، فلتحدثني عن اليوم الذي بدأتما به الكتابة؟ (بيتر)

- بدأتما! (السيّد، متصنّعًا عنصر المفاجأة)

أخذ السيّد يقهقه بسبب لوثة العقل التي تمكن من إلحاقها ببيتر، وأثناء ذلك توجه لمكتبه وجلس على مقعده جلوس منتقم، ثم قال:

- كان يومًا بمئة يوم!

المشهد الثامن

السيّد براغ

كعادته المُباغتة، ضرب البرق سماء المدينة بشكل فاجأ كلا المتحاورين في الصالة، وصَدَف وقتها أن كان كلّ منهما ينظر إلى الآخر ضمن أحاديث صامتة. وبمعيّة وفرة الإضاءة لحظتها، تمكّن بيتر من إبصار تفاصيل وجه السيّد بدقّة شديدة ضاعفت من رصيد ارتيابه، بينما في المقابل بان للسيّد بضعة جداول عرق تنساب من أعلى رأس بيتر حتى مصبّها خلف ياقة قميصه الأبيض أثارت تعجّبه بحق، خصوصًا وأن درجة حرارة المكان كانت معتدلة أفضل اعتدال!

"بالفعل، كم يُكبرني في عينه!" علّق السيّد في سرّه متأثرًا ثم بادر ينبّه بيتر الذي بدا وقتها كتائه:

- بيترا!

- يا لأجواء براغ! .. أين كنّا؟ قلت بأنه كان يومًا بمئة يوم! (بيتر، متلعثمًا)

- نعم، بالفعل كان كذلك.

- اعذرني سيّد توماس، ولكنني لا أستطيع كتمان فضولي لمعرفة كيفية دخولك إلى عالم الكتابة. (بيتر، بارتباك)

ضحك السيّد بصدقٍ حتى كادت تنساب دموعه، تمالك نفسه ببطء إلى أن أتم استجماعها ثم قال:

- أحقًا تسألني قصّ ما قبلت بمقابلتك لأجله! يا لك من عجول!

ندم بيتر على استعجاله، وفي المقابل نهض السيّد من مكانه وتوجه صوب الواجهة الزجاجية المنهمكة في تلقّي ضربات حبّات البرد. ومن هناك أضاف:

- انقضت الليالي الخمس التي تلت استيقاظي على وتيرة واحدة، عمل فيها الجميع على خدمتي بشكلٍ حصريّ، وتلقّيت فيها جرعات كبيرة من الأطعمة والأدوية، وفي المقابل حُرِمت من كل ما قد يُكّدر بال أحد. كانت أربعة أيام في غاية الهدوء.

- وماذا عنه؟ أكنت تراه في تلك الأيام التي تلت استفاقتك من الغيبوبة؟ (بيتر)

- بالطبع رأيته، منذ ظهوره الأول وأنا أراه في كل لياليّ، وما كانت ليالي تعافيّ تلك لتشّذ عن ذلك.

- ترى وكيف كانت طبيعة لِقَاءاتكما في تلك الفترة؟ (بيتر، مستشعرًا باقترابه مما يوّد سماعه)

- كانت مختلفة أشد الاختلاف، كان يجلس خلف مكتبي منكبًا على وجهه يكتب، أما أنا فكنت أقضي وقتي أجلس بجانبه لا أنبس ببنت شفّة حتى يحلّ صباح اليوم التالي. فأستيقظ لأنتظر المساء كي أعود إليه، وهكذا دواليك!

أبدى بيتر نظرة شفقة تجاه السيّد. تساءل بمعيّتها:

- يا للملل! كيف تحمّلت ذلك؟

غضب السيّد حتى انتفخت أوداجه، ثم أجاب بانفعال صارخ:

- أحذّرك من مغبّة النظر لمن هو مثلي بمثل تلك النظرة! إنها نظرة لا تليق أمام الخاصّة.

تمهّل قليلًا ثم تابع بوتيرة تحمل في طيّاتها غضبًا أقل:

- ملل! عذرًا منك أيها الصحفي ولكن كيف تقضي أنت لياليك؟ أو حتى صباحاتك؟ بالمناسبة، ألم تكن مجرد مقابلتك لي في قمة هرم أمنياتك؟ ورغم ذلك تتوقع الملل لمن يقابلني على مدار بضع ليالٍ؟

ما كان بيتر ليتخيل سماع مثل ذاك الردّ. كم أُحرج بيتر وقتها! أما السيّد فتابع وكأنه يمعن في إهانة فريسته:

- بشكل عام، إنه من العظمة بمكان أن يجالس المرء نفسه، فبمعيّة مُجالسة مثلها تتفتح للمُجالس نافذة على حقيقته المجرّدة، فتتبيّن له عدة أمور محجوبة عنه؛ من طريقة ابتسامه إلى عمق كلامه، ويشمل ذلك كيفية قيامه وقعوده وجلوسه ومجمل حركاته وتحركاته.

وأجمل ما في ذلك كونها تظهر من زاوية جديدة لم يطرقها الـمُجالس من قبل، وبعيدة كل البعد عن طبيعة ما قد يخطر على باله، إنها الزاوية التي تهبك الرؤيا الممنوحة للآخرين.

نظر بعينيّ صقر ثم أضاف:

- ترى كيف سيكون الحال إذا كان الـمُجالس من الخاصة! ويقابل من هو من الخاصّة!

ابتسم السيّد بلؤمه المعتاد ثم قال:

- لا عليك.

تلعثم بيتر من تزايد وتيرة هجمات السيّد على مداخلاته، ورغم ذلك لم يجد أمامه سوى تجاهلها، ولتطبيق فكرته تساءل ببرود:

- بالفعل! يا لها من فكرة مُغرية بأن يجالس المرء نفسه، فبذلك يدرك مدى جمال شكله وصوته وطبيعة أبعاد حجمه، وكذلك قدرته على الكلام بتعبيرات الوجه أو بأبسط الكلمات. ترى أسيسعفني حظّي بمجالسة مثلها؟ (بيتر، حالـمًا)

تنهّد السيّد مستاءًا من سوء مستوى ما سمعه، ثم توجّه نحو بيتر وتساءل ببرود وملامح اللؤم تتضاعف على وجهه:

- ماذا عنك! متى كانت آخر مرة رأيت نفسك فيها؟

تضاحك السيّد بشكل مصطنع ثم أضاف:

- أكان ذلك في المرآة أثناء تنظيفك لأسنانك؟

أضاف كجملة معترضة:

- بالمناسبة، أسنانك جميلة.

تضاحك السيّد أكثر ثم أضاف:

- يا لها من رؤى ذميمة!

صمت قليلًا ثم أضاف بعنفوان طاغٍ:

- أما أنا فقد وُهبت الفرصة كي أتعرّف على ما أحبه في نفسي فطوّرت منه، كما وتنبّهت لما أكرهه فيها وعملت على إصلاحه.

أضاف ببالغ الغرور:

- كم أحب نفسي وأعشق مجالستها!

بادر بيتر بقصد حثّ السيّد على متابعة قصته فقال:

- ماذا عن ..

قاطع السيّد سؤال ضيفه ليضيف بدوره ما توقّعه من إجابةٍ للسؤال المقطوع قائلًا:

- أما الليلة الخامسة فكان وضعها مختلفًا تمامًا، إذ قام الأنا الآخر بمشاركتي كل ما كتبه طوال الليالي التي تركني وحيدًا فيها، عرضها عليّ بأدق تفاصيلها، وبالغ في ذلك!

بينما انبهر بيتر بدقة تنبؤ السيّد لما كان سيسأل عنه، رمقه السيّد بنظرة من استدرك شيئًا ما، فأشار إليه بسبابته وقال:

- كانت تلك هي أولى صفحات روايتنا الأولى؛ "الأم" الرواية التي تطرقنا لها سابقًا ضمن حديثنا.

تابع وكأنه يحدّث نفسه:

- كان المكتوب جميلًا للغاية، لدرجة استحالة كونه صادرًا منّا.

كمجنون، ضحك السيّد على اعترافه ثم أضاف:

- في البداية لم أصدق كون تلك المكتوبة من بنات كلماته وأنه بالفعل هو من كتبها. مِلت لتصديق احتماليّة كونها مسروقة، إلّا أن معرفتي السابقة به وبنفسيّته وبمعارفه نسفت لي تلك الفكرة.

- أتقصد أنك صدّقته في نهاية الأمر؟ (بيتر)

- بل في بدايته، بالطبع صدّقته. (السيّد، كمعترف)

- كيف كانت ردّة فعلك وقتها؟ (بيتر)

- كنت متفاجئًا للغاية، وذلك لم يكن بسبب ما قرأته، لا! ولا لكونه قد بيّت النيّة للمتابعة في أمر الكتابة ما استطاع. بل فكرة الكتابة بحدّ ذاتها هي ما فاجأتني، فكرة الكتابة برمتها، فكرة اصطدامي المباشر بها!

- أتفهّم ذلك، من البديهي أن تتفاجأ .. (بيتر، كواثق)

- لا، أنت لا تتفهّم أيّ شيء! (السيّد، بقسوة)

كان بيتر وقتها قد يئس من نفسه قبل أن ييأس من احترام السيّد له، لذا تظاهر عن طيب نفس بكونه لم يتنبّه لما قيل أمام مسامعه. أما السيّد فأضاف:

- منذ صغري وأنا أقف عاجزًا أمام هذا الشأن؛ شأن الكتابة. بدأ ذلك منذ صغري، أمام مكتبة والديّ الهائلة التي كنت أنظر إليها كل مساء وأنا أتساءل عمّن كتبوا كتبها! وأن كيف كتبوها! وإن كان هناك حقًا من سيقرؤها! والأهم من كل ذلك كله؛ لم كتبوها؟

كانت هوايتي الوحيدة في ذاك الوقت منحصرة في ترتيبها، أُنزِل كتبها، أنظفها رغم نظافتها، ثم أعاود ترتيبها بالشكل الذي يحلو لي بعد أن أتصفّح عناوينها وبعض صفحاتها.

تنهّد السيّد ثم أضاف:

- أفهمت لم أقول لك بأنك "لا تتفهّم أي شيء"!

- أحقًا قُلت ذلك؟ (بيتر، متظاهرًا بكونه لم يسمع ما قاله السيّد منذ برهة)

ضحك السيّد ببساطة غير مألوفة ثم تابع بجديّة بالغ فيها:

- سأعود إلى تلك الليلة التي عرض عليّ فيها الأنا الآخر صفحاته الأولى.

- كم يسعدني ذلك! (بيتر، بحماس)

على غير العادة، منح السيّدُ ضيفه ابتسامة أب وكأنه يشاركه الحماس، ثم قال ممعنًا في تركيزه:

- تباحثنا ليلتها طويلًا، شمل ذلك كل صفحة كتبها، كل فقرة، كل جملة وكلمة وحتى كل حرف، نعم، كل حرف!

- أعذرني، ولكن من أين لك بمثل تلك القدرة لتتباحث وتتناقش في أمر بعيد كل البعد عن مجال نشاطاتك أو دراستك؟ ألا ترى أنك أقحمت نفسك في مجال النقد الذي لا تحترمه؟ خصوصًا وأنك لم تكن قد بدأت مزاولة الكتابة ولا حتى بتجربتها! (بيتر، مقتنصًا فرصة الانتقام)

أضاف السيّد ضاحكًا:

- نعم، أقحمت نفسي في ما لا أحترمه، ما العيب في ذلك؟ يا هذا إن الأمر أبسط مما تتخيل، أبسط بكثير، خصوصًا عندما يكون الأمر منوطًا بمرء من الخاصة، مثل الأنا الآخر خاصتي، فنقد الأمر المُنجز ببراعة لا يحتاج إلى شيء يذكر. بمعنى أنه يكفيك أن تتصنع بذلك!

- أتصنّع النقد؟ (بيتر، مستنكرًا)

- نعم، إنه أبسط مما تتخيل، سواء بتصنّع التبرّم والامتعاض مما يُعرض عليك، أو بتصنّع صعوبة توضيح أفكارك الإبداعية غير المسبوقة، أو أي شيء يشابه ذلك.

- أيعدّ ذلك كافيًا؟ (بيتر، مستنكرًا)

- ولكن عليك أن لا تنسى لاحقًا تقبّل ما تعمل على نقده. أحقًا لم يسبق لك أن عملت يومًا على تدقيق أمرٍ ما تمت دراسته من شخص بارع؟

- بلى. (بيتر، بارتياب)

تمالك بيتر نفسه ثم أضاف:

- ولكن أيتناسب ذلك مع السيّد براغ؟ (بيتر، بمكر)

- لم أكن السيّد براغ وقتها! (السيّد، بشكل قاطع)

لم يكن ليدرك بيتر أنه استطاع بلؤم خدش كرامة السيّد براغ، نعم لقد تمكّن من خدش ما لم يجرؤ أحدهم على الإقتراب منه قط، ولا حتى منذ لحظة ميلاده. أما السيّد فتوجّه متثاقلًا نحو مكتبه، وهناك ألقى بجسده على كرسيه، ثم أضاف بصوت مُثقلٍ بالهموم وكأنه يقصد الاعتراف:

- بالفعل لم يكن ذاك الأمر ليتناسب مع السيّد براغ أبدًا، إلّا أنني فكّرت وقتها بطريقة مختلفة عمّا أفكّر عادةً، فكرت بأنانيّة مطلقة، تمامًا كما تفعلون، فكما تعلم لم يكن للأنا الآخر خاصتي القدرة على المتابعة في أمر الكتابة من دوني، كان بحاجة للحنجرة التي ينطق من خلالها، تمامًا مثلما كنت بحاجة لمضمونه لأتفوّه به.

- ولكنك لم تكن مضطرًا لتتفوه بشيء! (بيتر، باستهجان)

رغم سوء توقيت تلك المقاطعة، لم يجد السيّد نفسه في مزاج يسمح له بالاستهزاء من بيتر، لذا اكتفى بالإشارة إليه بيده بقصد إسكاته، ثم قال:

- حتى أنا توماس روزسكي لم أكن راضياً عن تلك الطريقة التي أقحمت نفسي فيها. لقد تنازلت كثيرًا، أكثر مما يليق بوريث عائلة روزسكي.

- ترى ما الذي دفعك إلى ذلك؟ (بيتر)

- لا أدري، حقًّا لا أدري، كان في داخلي عدة أصوات متأججة تدفعني للخوض في ما بدأ الأنا الآخر خاصتي بخوضه. ألم تسمع ما قصصته عليك من النجاحات التي حققتها في كل ما خاضه الآخر خاصتي؟

- أفضل نجاح. (بيتر، كمتملّق)

- فلم لا أتابع في الطريق الجديد الذي اختاره! - طريق الكتابة - كان هذا مطلب العديد من الأصوات الـمُشجعة في ذهني. (السيّد، وكأنه يعاود إقناع نفسه بالفكرة)

- ولكن هل للتشجيع من أثر على أمر كالكتابة؟ فكما تعلم؛ الكتابة لا تتبلور مع التدريبات مهما رافق ذلك من الإصرار. ومن جهة أخرى إنها مختلفة كل الاختلاف عن كل ما مارسته من النشاطات من قبل، أليس كذلك؟

أهمل السيّد كلمات بيتر وكأنه لم يسمعها، باستثناء كلمة واحدة اقتبسها وبنى عليها قائلًا:

- إنها بالفعل مختلفة، لا لشيئ سوى لتوفّر شيء ما في فكرة الكتابة جذبني، لقد شعرت بشعور غريب يتملّكني، شعرت وكأنني أمتلك فكرًا وأفكارًا ما، وواجبٌ عليّ البوح بها، مجرد البوح بها، نعم لقد شعرت بذلك، رغم انعدام منطقيّته من جهة، ورغم الفراغ الذهني الذي كنت أعيشه من جهة أخرى.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ (بيتر)

- حدث كل شيء. تعاقبت علينا الليالي بذات الرتم، يقوم فيها بكتابة ما يستطيع إليه سبيلا، يعرضه أمامي آخر الليل، فأقرأه بتمعّن ثم أتصنّع الموافقة عليه، وأختم ذلك بأن أستيقظ لأدوّنه في أوراقي.

- أحقًا كان كذلك؟ (بيتر)

- لا، إنني أمازحك! (السيّد، مستاءًا)

- كدت أصدقك! (بيتر)

- يا لك من أحمق! بالطبع كان كذلك! (السيّد، غاضبًا)

- ثم! (بيتر، خجلًا من نفسه)

- ثم ظهر إنجازنا الأدبيّ الأول للعلن؛ رواية الأم.

- أتراك تعد ذاك الإنجاز لمصلحتك كالسيّد توماس أم لمصلحة الأنا الآخر خاصتك؟ (بيتر، بمكر)

- بل لمصلحة أهل مدينة براغ، التشيكيين، العالم. (السيّد، بغرور وكأنه يخاطب أهل الأرض جميعًا)

وفي أثناء تفوّهه بما قاله، نهضت هيئة الطاووس مجددًا من العدم لتكتنف السيّد، نشرت ذيلها على وسعه وتراقصت بتباهٍ، وكأنها بذلك تتطاول حتى على المميزين من بني جنسها، أما السيّد فبدا كرجل أربعينيّ بلغ للتوّ أشدّه وكأنه تجرّع أشبه ما يكون بإكسير الحياة. تابع قائلًا:

- ومنذ ذاك اليوم وإصداراتنا الأدبية تتوالى، حتى يومنا هذا.

- ويا لها من إصدارات! ولكن عذرًا، لم تقول "حتى يومنا هذا؟" ترى ماذا تخبئ لنا في الغد؟ (بيتر، بجرأة)

- وهل قبلت بقدومك سوى لتعلم ذلك؟ (السيّد، مستسلمًا)

صُدم بيتر من إجابة السيّد غير المفهومة التي ما كان ليتوقعها قط، أما السيّد فتابع وسط حماسة بيتر:

- ولكن ما زال الوقت باكرًا على ذلك! (السيّد، بلؤم)

علّق السيّد بذلك وهو يشير إلى ساعة مثبتة على الحائط، وأثناء نظره وبيتر نحوها طُرِقَ الباب. تفاجأ بيتر، أو بالأحرى لم يتوقع حدوث ما يقطع اجتماعه مع السيّد، ولسوء حظّه أنه جفل بشكل مبالغ فيه لدرجة أضحكت السيّد.

استجمع السيّد نفسه ثم منح الطارق الإذن بالدخول، وأثناء ذلك أخذت عيناه تنظر إلى خيبة أمل بيتر التي باتت معهودةً لكلا الطرفين.

دخل إدوارد مبتسمًا كما العادة، ودخل برفقته اثنان من العاملين في القصر، كانا مختلفين عمّن ظهرا في المرّة السابقة، ولكن بذات الأناقة، بادروا جميعًا بتحيّة السيّد، ثم أومأ إدوارد إلى أحدهما فتقدم للأمام قليلًا وانحنى للسيّد ثم قدّم القهوة التي كان يحملها وقال:

- قهوة هاواي كونا، من إعداد السَيّدة سامانثا.

تراجع الأول ليترك لزميله الفرصة ليقدّم ما يحمله. تقدّم الثاني وقال:

- كيك إنجليزي تقليدي، من إعداد السَيّد ألكسندر.

كم أُسعد بيتر بحصوله على تلك الضيافة في ذاك التوقيت! وخصوصًا لكونه من أشدّ عشّاق صنف الحلويات الـمُقدّم، أما السيّد فأبدى قبوله لما يحملانه، فقدّماه بحرفيّة ثم قاما برفقة إدوارد بتحية السيّد مرة أخرى مودّعين، ورحلوا بعدها، تاركين من خلفهم السيّد وبيتر وضيافتهما، يكتنفهم الصمت.

لم يكن ليدرك بيتر وقتها كيف سيتمكن ذاك المشهد البسيط من إبطال حتميّة ميل الحوار الدائر لمصلحة السيّد، إلّا أنه مع انقضاء بعض الوقت بدأ يستشعر لا إراديًا باستجماعه أشلاء خبرته الـمُشتتة إلى درجة أن فاض به الأمر وقال مبادرًا:

- يُجمع جمهورك على تقسيم مسيرتك الأدبية الطويلة إلى ثلاث مراحل.

- أحقًا ذلك؟ (السيّد، مستهزءًا)

على غير العادة، تابع بيتر دون اكتراث لما سمعه وقال:

- في المرحلة الأولى كتبت عن الفضائل والشخصيات الفاضلة، كالأب والأخ والصديق والمربي والقائد والعالِم.

- والأم والأخت والزوجة، أتُراك ممن يتحيّزون للرجال! (السيّد، بمكر لا يخلو من الاستهزاء)

ابتسم بيتر بقصد تجاوز تعليق السيّد مرةً أخرى ثم تابع:

- أما الثانية فكتبت فيها عن عوالم متنوعة مُتخيلة، ما بين البحار والسُحب والمدن الخفيّة والمسحورة وما شابه ذلك، وكان من الملفت أنها تعدّ أقصر مرحلة.

"يبدو أنني الآن أمام بيتر آخر"، علّق السيّد في سرّه مُندهشًا من الظهور المتأخر لصحفي العام الحقيقي، وفي المقابل تابع بيتر الجديد قائلًا:

- أما المرحلة الثالثة والتي كانت الأطول بشكل ملفت، كتبت فيها عن الشهوات والرذائل والشخصيات الوضيعة من حولنا.

أومأ السيّد برأسه عدّة مرات بقصد الموافقة على الكلام المذكور، ثم أشار بيده إلى بيتر بقصد حثّه على المتابعة. وفي مقابل ذلك تساءل بيتر في سرّه بذهول عن مدى تأثير طبق الضيافة الإنجليزي عليه وعلى بنات أفكاره.

أضاف بيتر بنديّة غير متوقعة وسط صمت السيّد النادر:

- حركة التنقل الفكري بين النقيضين لا ولن تتناسب مع شخصية السيّد توماس روزسكي. وذلك يدعوني إلى سؤال أتمنى أن تسمح لي بطرحه.

- تفضل. (السيّد، بترقّب للمرة الأولى منذ بداية الحوار)

- لماذا فعلت ذلك؟ (بيتر)

- أتسألني لماذا؟ أم كيف فعلت ذلك؟ (السيّد، مستنكرًا)

- كيف! لا أحد على وجه هذه البسيطة يستطيع التشكيك بمقدرتك على فعل ذلك. أما "لماذا!" فبالتأكيد لن أجد إجابةً عنها عند أحدٍ سواك.

ابتسم السيّد رغم ذهوله مما سمعه، ثم أجاب كمعترف:

- يا له من سؤال دقيق! أحببت سؤالك.

ابتسم بيتر ابتسامة متذيّل ترتيب مسابقة ما لحظة إحرازه لهدفه الأول فيها، وفي المقابل عدّل السيّد من موضع كرسيه ثم أسند ظهره مسترخيًا ورفع قدميه على مسند قريب منه ثم قال:

- كانت له رغبة فريدة للغاية، فحواها تسليط الضوء على الرذائل والشهوات المنتشرة بيننا تسليطًا مكثّفًا ومُعمّقًا .. وجارحًا.

- ترى كيف يكون لأحدهم رغبة بمثل ذلك؟ (بيتر، مستنكرًا)

ضحك السيّد بصوت عالٍ ثم توقف فجأة وأجاب بحدّة:

- أحقًا تستنكر تسليط الضوء على ما لا تستنكر وجوده!

"أفحمتنيّ" أجاب بيتر في ذهنه، بينما بلغ إعجابه بالسيّد أعلى مستوياته. تابع معقّبًا:

- حسنًا، وماذا عنك؟ (بيتر)

- أذهلتني فكرته، خصوصًا عندما نرى الأدب العالمي وهو مشبع بالفضائل، مع العلم بأن العالم يفتقر لها أشدّ الافتقار.

- وجهة نظر تحترم. (بيتر)

- بالطبع تحترم! (السيّد، بحدة)

توتر بيتر من نبرة حديث السيّد، أما السيّد فعاد إلى طبيعته وتساءل وكأنه لم يتفوّه بما أزعج ضيفه:

- ألن تسألني فيما إن كان وفكّرنا في تقبّل القرّاء لفكرتنا الشاذّة عمّا هو مألوف بالنسبة إليهم؟ (السيّد، دافعًا بيتر للتفكير)

- بلى ولكن أحقًا يهتم السيّد توماس برأيهم؟ (بيتر، متهربًا من الإجابة)

- بالطبع لا، إلّا أنني كنت بحاجة لسحبهم للإيقاع بهم في دوامة أفكاري!

- وكيف تمكنت من الوصول إلى مرادك؟ لا بدّ من أنك وضعت خطةً مثاليّة لذلك؟ (بيتر، مترقّبًا)

- لم تكن خطةً بمعنى الخطة، بل مجرد فكرةٍ لامست المثاليّة رغم بساطتها.

- ألا وهي؟ (بيتر، بحماس)

- مجرد الكتابة عن نقيض ما نودّ الكتابة عنه، النقيض تمامًا؛ نعم كانت فكرتي تقتضي الإبحار في عالم الفضائل بشتّى أشكالها وأنواعها، وكل ما يدور في أفلاكها. وبالطبع لم يكن ذلك من باب المحبة، بل لحشد أكبر عدد ممكن من أذواق العامّة.

فكما تعلم، منذ سنوات طويلة والعامّة يتوقون للخير وللشخصيات الخيّرة والصعوبات التي تواجههم وكيفية تجاوزهم لها، لقد باتوا يفتقدونهم في العالم بشكل جليّ. وكمحصلة لذلك عشقوا قراءة القصص التي تخصّهم وتتحدث عنهم. (السيّد، ببرود)

- يبدو أنني سمعت للتوّ المرّة الأولى التي أشرت فيها إلى العامّة باحترام؟ (بيتر، كمُحلل)

- وأين الاحترام فيما قلته؟ (السيّد، باستغراب)

- أقصد ذكرك لرغبتهم في قراءة ما يخصّ الفضائل ويتحدث عنها.

- حسنًا؟ (السيّد، باستغراب أكبر)

شعر بيتر بكونه يتفوه بما لا معنى له، ورغم ذلك تابع قائلًا:

- أتُراك تمدحهم لأنهم هم من يصنعون الخاصّة؟

شعر السيّد بشيئ من الجرأة الـمُحدثة في طرح بيتر، فقرر تحجيمه باستخدام القسوة المفرطة فأجاب:

- بل دونيّتهم هي من تفعل ذلك!

"يا لها من إجابة وقحة" علّق بيتر في سرّه وتعابير وجهه متحجّرةٌ وكأنها صُفعت للتوّ من قبل السيّد. تابع السيّد ببرود شديد:

- وبالفعل تم ما خططنا له، دأبنا على الكتابة عن مضامين تناقض ما قصدناه. وكما تعلم الآن، وكما كان متوقعًا وقتها، أدّت كتاباتنا ما كان عليها وجذبت الجماهير نحونا.

- الجماهير الغفيرة! (بيتر، كحاسد)

- بالفعل كانت كذلك! ثم انتقلنا إلى المرحلة الثانية، المرحلة الانتقالية التي ذكرتها من قبل، وكان الهدف منها تهيئة القرّاء وتحريف بوصلتهم الأدبية وتمهيدها كي تستقبل نقيض ما يقرؤوه ويحبوه. (السيّد، مُختالًا)

"يا لها من فكرة شيطانية!" قال بيتر في سرّه، بينما كان السيّد يحلّق في ذكرياته.

- ثم ماذا؟ (بيتر، كمن يجلس أمام شيطان)

- ثم حان وقت المرحلة التي اعتبرتها أنت الثالثة، والتي هي في الواقع المرحلة الوحيدة التي كتبنا من أجلها. مرحلة الكتابة عن الرذائل والشهوات، بيت القصيد في رحلتنا.

- أحقًا لم تجد مجالًا أفضل لتكتب فيه؟ (بيتر)

تنهّد السيّد بحرقة ثم أجاب:

- لا لم أجد. وكيف لي أن أجد وقد أُشبعت بالنفاق الذي أُحيط به والداي، كانت أموالهما تستميل العديدين نحونا، رجالًا ونساءًا، عاملونا كملوك وأكثر، وكل ذلك دون أن نستحق، وعلى حساب من؟ على حساب مبادئهم وقناعاتهم وكرامتهم، ولا أستبعد أن طال الأمر شرفهم أيضًا.

- ولكن ألا ترى أنكما بالغتما في حدّة ما كتبتماه؟ (بيتر)

- بالغتما! أنا والأنا الآخر خاصتي؟ (السيّد، ضاحكًا من استخدام بيتر لصيغة المثنّى)

كم أحرج بيتر وقتها! أما السيّد فتساءل:

- أيمكنك إخباري عن مكمن المبالغة في الموضوع؟ (السيّد، متصنّع الجدّية)

- أحقّا لا تجد مبالغة في ما كتبته؟ ألا يعدّ الربط بين مفهومي الأبوة والسرقة مبالغةً؟

رمق السيّد بيتر بنظرة استنكار شجّعته على الدفع بمثال ثان فقال:

- وماذا عن ربط مفهومي الأمومة والخيانة؟ العلم والجشع؟ (بيتر، مهاجمًا بضراوة)

- ما بالها؟ (السيّد، ببرود)

- أيعقل أنك لا ترى في ربط مثل هذه المفاهيم أيّة مبالغة؟ (بيتر، مستاءًا)

- لا. (السيّد، ببرود أكبر)

توجّه السيّد نحو بيتر وجلس قبالته، منحه ابتسامةً خاليةً من البراءة لم يتمكن بيتر من استساغتها. تابع السيّد:

- أتغفر للأب "السارق" سرقته؟ أم تراك تتوقع من المجتمع الصَفْحَ عن الأم "الخائنة" خيانتها؟ (السيّد، كقنّاص)

- لا. (بيتر، على مضض)

- أفهم من قولك أنك تعترف بأن المبالغة موجودة في الأفعال بحدّ ذاتها وليس بحقيقة فاعليها، أليس كذلك؟ (السيّد، كمنتصر)

- بلى. (بيتر، على مضض أشد)

- تناول ضيافتك. (السيّد، آمرًا)

نظر بيتر نحو السيّد نظرة فارغة فحواها الاستفهام عن مقصده. علّق السيّد بلؤم قائلًا:

- هاواي كونا، القهوة التي أمامك! (السيّد، مُستهجنًا تيه بيتر)

- بالطبع .. بالطبع، سأشربها. (بيتر، مرتبكًا)

مدّ بيتر يديه ببطء وتناول قهوته، ابتسم للسيّد ابتسامة بلهاء تمنّى لو لم يبتسمها، ثم رشف من القهوة رشفة كبيرة اكتشف على إثرها كونها مميّزة. ابتسم مرّة أخرى ثم تذّوق الكيك الإنجليزي المقدم له ليتفاجأ أيضًا بطيب نكهته، وأثناء ابتلاعه للقمته الأولى أضاف السيّد:

- ليكن بمعلومك، إنها تُحتسى احتساءًا ولا تشرب!

- ماذا؟ (بيتر، غير مدرك)

- القهوة! (السيّد، مبتسمًا بخبث)

من نفسه لا من السيّد هذه المرّة، تضاعف شعور بيتر بالانزعاج وأخذ يحتسي القهوة كما أُمر، وأثناء ذلك فكّر بمخرج يخرجه من الحالة المزرية التي أوجد نفسه فيها.

ومع مرور بعض الوقت، وبشكل فاجأه قبل أن يفاجئ السيّد، لمعت في رأس بيتر فكرة دفعته للهجوم بالاستناد على قوّتها فقال:

- وما قولك بخصوص رواياتك الخمس الأخيرة؟ لا يمكنك التهرّب من الاعتراف بكونك قد بالغت فيها بشكل خاص؟

للمرة الأولى ذاك اليوم، نظر السيّد باحترام صوب بيتر نظرة أربكته حتى ظهر ذلك جليًّا على مُحيّاه، استجمع صحفي العام قوّاته النفسيّة ثم تابع رغم ارتباكه:

- خصوصًا عندما مكّنت أبطالها الخمسة - أصحاب الشهوات - من الانتصار انتصارات كاسحة لا مثيل لها، كما أنك لم تكتفِ بذلك فتركتها بنهايات مفتوحة لدرجة أثارت سخط السواد الأعظم من القرّاء! (بيتر، بصوت مرتجف)

ابتسم السيّد ابتسامة ثمانيني مرهق، ثم نهض ببطء نحو اللوحات الخمسة المتجاورة الـمُعلّقة خلف مكتبه وحدّق فيها، ومن هناك نظر صوب بيتر وسأله:

- ألم تلاحظ شيئًا؟

من مقعده وكخبير، أمعن بيتر النظر في اللوحات كما فعل السيّد ثم قال:

- جميلة، ولكنها غير متناسقة!

كانت اللوحات غير متناسقة بالفعل، لدرجة غريبة لا تليق أبدًا بقصرٍ مثل قصر ليختنشتاين. فاللوحة في أقصى اليسار تتحدث عن فراشة زرقاء جميلة تطير لأعالي السماء، تاركةً وراءها شجرةً غنيّة بالخضرة، أما اللوحة القابعة على يمينها فتتحدث عن ثورٍ أحمر اللون وهو يقفز من على قمّة جبل هائل وهو ينظر إلى السماء، جسده ينطق بالقوّة وعيناه تحذّران مما فيهما من الغضب.

أما اللوحة الثالثة فتحدّثت عن غرابٍ أسودٍ يُحلّق مسرعًا صوب السماء، ومن تحته تظهر أرضٌ شديدة اللمعان، أما الرابعة فتحدّثت عن تنين أخضر كبير الحجم وهو يطير فوق بحيرة ضباب، بينما كانت اللوحة الأخيرة تتحدث عن ثعلبٍ صغيرٍ برتقاليّ اللون، وهو يقفز للأعلى تاركًا في الأسفل منه عرشًا عظيمًا بدا كأنه الأعظم على وجه الأرض.

تساءل السيّد باستياء:

- "غير متناسقة"! ما الذي تتحدث عنه يا هذا؟

- اللوحات! ألم تسألني إن كنت قد لاحظت شيئًا؟ (بيتر، خجلًا)

ضحك السيّد باستفاضة، ثم علّق مُحرجًا بيتر:

- يا هذا! نحن نتحدث عن رواياتي الخمس الأخيرة! ما غير المتناسق فيها؟

- ماذا؟ (بيتر، كأحمق)

- فلتنظر إلى هذه اللوحات. (السيّد، مُفسحًا المجال أمام عينيّ بيتر مرّة أخرى)

- أنحن نتكلم الآن عن اللوحات أم الروايات؟ (بيتر، مرتبكًا)

- انظر! (السيّد، غاضبًا)

عاود بيتر الإمعان في اللوحات، ثم جدّد تعليقه قائلًا:

- جميلة. ولكنها غير متناسقة! (بيتر، خائفًا من رد فعل السيّد)

- ألا تلاحظ كون نهاياتها متشابهة؟ (السيّد، أكثر غضبًا)

- بالفعل! (بيتر، بحماسة بعدما راجع نفسه)

- وكذلك الأمر بالنسبة لرواياتي الأخيرة؟ (السيّد، بمكر)

- بالفعل، كيف لم أتنبّه على ذلك من قبل! (بيتر، منزعجًا من قلّة حيلته في مواجهته للسيّد وأساليبه! خصوصًا وهو يتلاقف به باستخدام الجُمَلَ والكلمات)

وأثناء انزعاج بيتر الذي كان واضحًا للعيان، نهض السيّد من مكانه وتوجّه صوب ضيفه وجلس قبالته، ثم مدّ له يده مُصافحًا بشكلٍ بدا وكأنه من دون مقدمات.

وبدوره استجاب بيتر لمصافحة السيّد وكأنها حدث روتينيّ، إلّا أنه عندما تصافحا تبيّن لبيتر أن الأمر كان غير ذلك، إذ صافحه السيّد بحرارة غير مسبوقة، سَرَت لها على الفور قشعريرة مريرة عبرت جسد بيتر بقوّةٍ فضحته وأخجلته.

وبدلًا من سحبه ليده لإنهاء المصافحة كما العادة، غلّف السيّد بيساره يد بيتر التي يصافحها وأطال في ذلك. أطال حتى اصطبغ وجه بيتر الخَجِل باللون الأحمر القاني، ومع وصول احمرار وجهه إلى نهايته، شعر بيتر أن السيّد يقصد قول شيء ما.

"لا بد من أن صوته يخونه!" قال بيتر في سرّه ثم انتظر إلى أن تمكّن السّيد من التلعثم ببضع كلمات غير مفهومة أظهرته مكسورًا.

جرّاء ما سمعه، شعر بيتر بوجود غصّة فظيعة ترتع في قلب السّيد، أثارت تعاطفه رغمًا عن أنفه، ولكن؛ فجأة وبصورة غير متوقعة، نهض السيّد منتفضًا كشعب جائع وقال:

- انتهت المقابلة.

لا لم يفهم بيتر شيئًا مما حدث أمامه من مجريات المشهد الأخير الذي جرى أمامه. فكّر في ما عليه فعله ولكن من دون جدوى، "ماذا عليّ أن أفعل" تساءل في سرّه وهو يحلّل بهدوء آخر ما وصل إلى مسامعه.

"لا بد من أنه يريدني أن أخرج"، استنتج بيتر وهو ينظر بحسرة إلى قدميه منزوعة الحذاء. وبعدها استجمع شتات نفسه ثم نهض بهدوء وانحنى ليقدّم التحية لمضيفه، ثم توجّه صوب الباب الذي دخل منه وفتحه. وهناك وجد كبير الخدم إدوارد وهو يحمل الحذاء المُحتجز. وفور رؤيته فرح بيتر بحذائه أشدّ الفرح، كفرحة طفل صغير وجد لعبته الضائعة وسط أنقاض مدينته المقصوفة.

ارتدى بيتر حذاءه قاصدًا الرحيل، إلّا أنه قبيل أول خطوة كاد يخطوها للخارج أضاف:

- شكرًا على كل شيء. (بيتر، يخطو خطوته الأولى)

أما السيّد ففاجأ ضيفه بصوتٍ جهوريٍّ قائلًا:

- توقف!

المشهد التاسع

السيّدة مارتينا روزسكي

على نقيض الأولى؛ كانت الدعوة الثانية التي تلقّاها صحفي العام خاليةً من أيّة بروتوكولات استقبال، فلم يكن هناك من عربة ليموزين بيضاء تنتظره، ولا قيود على ما يرتديه، كما وامتلك الحريّة المطلقة ليتزيّن بما يشاء من الإلكترونيات. باختصار بدا كل ما حوله وهو يعامله كإنسان حرّ.

لذا وبكامل هدوئه واتزانه وبدون أيّة ضغوطات تذكر، توجّه بيتر في مساء اليوم التالي إلى قصر ليختنشتاين كما طلبت منه سيّدة القصر، وكان يهدف للوصول في قرابة الساعة الثامنة والربع، وبدافعٍ سواء كان من الصدفة البحتة أو من الخوف الشديد، تمكّن بيتر من ذلك بدقّة لم يقصدها، "يا لها من بداية موفّقة" علّق صحفي العام في سرّه متفائلًا وهو يقابل بوابة القصر. وقبيل أن يفكّر في ما عليه فعله لحظتها فُتحت البوّابة.

- كِدت تتأخر! (إدوارد، مؤنبًا)

- أُنعمت مساءًا سيّد إدوارد. (بيتر، قلقًا من أسلوب إدوارد)

- أنا سيّد؟ (إدوارد، مُتصنّعًا الضحك وكأنه يردّها إلى بيتر)

أَدخَل كبير الخدم ضيف القصر، ثم ساقه من البهوّ إلى ذات الصالة التي جلس فيها يوم أمس - الصالة الخلّابة الناطقة بالبياض - وتمامًا كما جرى في المرّة السابقة، جلس بيتر حسبما أشار عليه كبير الخدم، ثم طلب له كأسًا من الماء.

شرب بيتر الماء ببطء وفي باطنه شعور بالاستياء للتشابه ما بين مقدمة زيارته السابقة والحاليّة، "لا بدّ من أن تكون هذه المرّة أفضل" علّق في سرّه مستنهضًا ما استطاع من التفاؤل من حوله. إلّا أن ذلك لم يكبح جماح مستويات قلقه التي تصاعدت إلى قيّم جنونية لم يجد لها أيّ تبرير.

ظل بيتر على حاله تائهًا ما بين مشاعره المضطربة إلى أن ظهرت، كنسمة، أطلّت السيّدة مارتينا بوقار من العيار الثقيل متوّجةً إطلالتها باللون الأسود، وكان ذلك في تمام الثامنة والنصف بالضبط؛ وشاح مُخرّم للرأس، ثوب طويل، وحذاء، وكلها سوداء تمامًا كما كانت في الأمس.

على عجالة وبشكل لا إراديّ، نهض بيتر ليقدّم التحيّة التي تليق بالسيّدة، وأثناء ذلك تعجّب من فكرة ارتدائها لذات الرداء على مدار يومين متتاليين. "أيفعل الخاصة مثل ذلك؟" تساءل بيتر في سرّه، "ولكنها لا تُعَدّ منهم! أليس كذلك؟" أضاف لتساؤله. أما السيّدة، فافتتحت الحوار مع ضيفها ببرود قائلة: - لا، ليس هذا ما ارتديته يوم أمس! (السيّدة، بيقين وهي تشير إلى ملابسها) - ماذا! (بيتر، مذهولًا من قدرة السيّدة على استنباط ما في باطنه)

توجّهت السيّدة مارتينا نحو أحد مقاعد الصالة المُفردة، وجلست عليه تمامًا كما يُجلس على العرش، برصانة وجلالة، ومن مقعدها أضافت: - تتشابه أزياء النساء، خصوصًا في المناسبات.

تابعت بشكل مُباغت وبمعيّة نظراتٍ أحدّ من السيف:

- وفي المقابل أراك أنت من تكررّ إطلالتك!

ابتسم بيتر مُستهزئًا، وكيف لا يستهزئ وهو من لم ولن يصدّق اتهامًا كاتهامها، إلّا أنه قرر من باب مجاملتها النظر إلى ما يرتديه جسده، وعندما فعل وتمعّن تساءل حائرًا: "ما هذا!

ما الذي يحدث لي!"

كان بيتر يرتدي بالفعل ما ارتداه يوم أمس. تمامًا! حاول تذكّر أجواء اختياره لملابسه قبيل قدومه إلى القصر ولكنه لم يتمكن. ومن باب التهرّب من حقيقة اتهام السيّدة له، هاجم بيتر معصم يده اليسرى ليبحث عن أثمن ساعاته التي يفترض كونه يرتديها، فوجود دليل براءة ما "كالساعة" كافٍ - على الأقل - لتقليص درجة اتهامها له! ولكنه بعدما فعل وتيقّن انصدم وهبّ واقفًا، ثم حافظ على هدوئه كما الصنم. نعم لم يجد حول معصم يده أي شيء!

أصابت بيتر حالة تبعثرّ غير متوقعة، لمح أثناءها كبير الخدم وهو يحمل شيئًا ما وكأنه يستعرض به، ومن باب التهرّب من الحال التي هو فيها، أثار أمر إدوارد الفضول في نفس بيتر لدرجة جعلته ينظر إليه بشكل مباشر. ليتفاجأ صحفي العام بما لم يتوقعه قط!

ومرّة أخرى طالب بيتر نفسه بالتيقّن قبيل إتيانه بأي فعل، وعندما فعل وتيقّن حق اليقين، وبهدوءٍ فظيعٍ، نقل بيتر نظره صوب قدميه بحذر في سبيل الجزم بصحة ما استنتجه، ووقتها تأكدت ظنونه، نعم كان منزوع الحذاء، "بل منزوع الكبرياء" علّق بيتر في سرّه ثم أخذ يتلعثم بمجموعة من الكلمات غير المفهومة.

"لا بد من أنه يتساءل عن اللحظة التي نزع فيها حذاءه وكبرياءه دون أن يُطلب منه" علّقت السيّدة في سرّها ثم قالت بغرور: - للخاصة سحر طاغٍ لا تُلام آثاره.

عاود بيتر القعود في مكانه، "ما أشبه اليوم بالأمس!" علّق في سرّه. وفي المقابل وفي سبيل إذلاله، أومأت السيّدة إلى إدوارد فاقترب من بيتر ليردّ إليه حذاءه، ووقتها نظر بيتر للحذاء المحمول بازدراء ثم أشار بيده رافضًا.

نظر إدوارد للسيّدة مُستفهمًا، فأشارت عليه بقبول رغبة الضيف، ففعل وانسحب. وأثناء ذلك أثنى بيتر على الموقف في سرّه قائلًا: "لم يلزمني في أمسي ليلزمني اليوم!"

عمّ الصمت المكان. من جهتها رغبت السيّدة بمنح ضيفها المجال لافتتاح الحوار تخفيفًا عنه لما مرّ به حتى تلك اللحظة، وفي المقابل كان بيتر غارقًا في بحر حيرته يتساءل عمّا يمكنه البدء به دون ارتكابه لأي أخطاء كالتي حدثت بالأمس. رغب بسؤالها عن حالها، إلّا أن جواب السيّد على ذات السؤال أعدم له رغبته.

يئست السيّدة مارتينا فبادرت قائلة:

- أدعى مارتينا، مارتينا جيري ..

- عذرًا على المقاطعة ولكننا اعتدنا أن نسمعك تُعرّفين عن نفسك بقولك "مارتينا روزسكي"! (بيتر، مُسترجلًا) "بداية موفقة لك أيها الصحفي" علّقت السيّدة في سرّها ثم أجابت:

- لم أدعُكَ لنتكلم عن هذا! (السيّدة، بحزم)

تابعت باسترسال مبالغ به، ولكن بهيبة طاغية:

- تكوّنت أسرتي من ثلاثة أفراد، تمامًا كما تكوّنت أسرتا والديّ من قبل! لذا لم أعرف سواهما من البشر، كنت وحيدة، وكما تعلم الوحدة تعني المزيد من الوقت، والفراغُ الخطر يكمن في هذا الوقت الزائد، وخصوصًا عند الأطفال.

وذات يوم، وفي سبيل محاربة الفراغ المحيط بي، فتح لي والدي نافذةً على مكتبة المدينة، أخذني إليها ومنحني من الوقت ما أشاء لأتجوّل فيها، كانت كبيرة بحق، كمتاهة وأكثر، لدرجة أن ضعت فيها.

- ضعتِ مجازيًّا أليس كذلك؟ (بيتر، متسائلًا)

- بل حرفيًّا.

- حسنًا! (بيتر، باستهجان)

- جزعت، جزعت كثيرًا وأخذت أنادي والدي مرارًا دون جدوى، كنت صغيرة جدًا وكان صوتي ضعيفًا للغاية.

- وماذا عن زوّار المكتبة؟ (بيتر)

- لاحقًا تبيّن لي أن ذاك اليوم كان يومَ عطلة المكتبة، وأن والدي تعمّد فعل ذلك بي.

- غريب! وماذا بعد؟ (بيتر، بارتياب)

- ما زلت أذكر ذاك اليوم، كنت في ممر كتب التاريخ، "لن أبكي!" أخذت قراري وأنا بين أرفف الممرات بعدم البكاء، ثم بدأت اقرأ عناوين الكتب التي أمرّ بها في محاولةٍ لحفظ ما تيسّر منها، ثم صرت أتنقّل ما بين الممرات الواحد تلو الآخر.

- وهل تمكنت السيّدة الصغيرة من حفظها! (بيتر، غير مصدّق)

- بالطبع لا، ولكنني أدركت المواضيع التي يتضمنها كل ممر، وبهذه الطريقة تمكنت قدر الإمكان من تمييز ما سبق ومررت به. ومع تغطيتي لمساحات أكبر من المكتبة نضجت في ذهني خريطة تقريبيّة لها منحتني القدرة على التوجّه ببالغ الثقة والسرور نحو مدخل المكتبة حيث ينتظرني والدي.

- يا له من أب! (بيتر، مستاءًا)

- أعظم أب! (السيّدة، متفاخرة)

تابعت والسعادة تطغى على محيّاها:

- كان والدي هناك ينتظرني، عند البوابة التي افترقنا عندها، كانت هيئته مختلفة، بجسد شابٍ وأعصاب عجوز، كان يترقّبني نادمًا برجاء، وكاد القلق ينال منه. ركض نحوي فور ظهوري أمامه واستقبلني بحضن غامر لم أشعر بمثله من قبل قط. ولا حتى من بعده.

حقًا كنت صغيرة، سألني دامعًا: "أين ضعت يا حبيبتي"، فأجبته بثقة: "في المكتبة". سألني: "وكيف وجدت طريقك؟" فأجبته: "عن طريق الكتب". ووقتها ابتسم بحق وتنهّد بعمق، وانسابت بضع عبرات من دموعه ليعاود ويحتضنني بعدها ويقول: "لن أخاف عليكِ بعد الآن يا صغيرتي".

- يا له من أب! (بيتر، مدهوشًا)

- أعظم أب! ألم أقل لك ذلك منذ قليل! (السيّدة، أشدّ تفاخرًا)

- ترى كيف كان أثر تلك الحادثة على السيّدة مارتينا؟ (بيتر، متسائلًا) - ما كانت السيّدة مارتينا لتكون لولا تلك الحادثة، لقد تمَكنَت من تغيير تكويني، صهرتني وشكّلتني من جديد، بإمكانك القول بأنني ولدت يومها - في يومي الأول في المكتبة - حقًا كان من المفترض تدوينه في شهادة ميلادي.

كانت مجريات حديث السيّدة مارتينا تثير دهشة بيتر باضطراد، فما له وما يسمعه، وبالإضافة إلى ذلك شعر بكونه يجالس السيّد براغ شخصيًّا لا زوجته. أما السيّدة فتابعت سردها وكأن هيئة فرس جامح تكتنفها: - ومنذ ذاك اليوم بات عالمي منحصرًا بين ممرات المكتبات، باتت كتبها أيامي، وشخصياتها أصدقائي. أمّا عالم البشر - بالنسبة لي - فكان منحصرًا بوالديّ وبضعة زمالات مدرسية أو جامعية أو مجتمعيّة لم ترتقِ لتتحوّل إلى صداقات.

- يبدو أن والدك نجح في تخليصك من الفراغ الخطر "الكامن في الوقت الزائد". (بيتر، متحذلقًا) - وأكثر! .. للمعلومة لا أحبّذ سماع كلمة الوقت من أحدهم، فالوقت كلمة لا أقبل

مشاركتها، فقيمته في حياتي - أنا السيّدة براغ - لا تتناسب مع قيمته لديكم. (السيّدة، أكثر شراسة) نهضت السيّدة والتفّت من حول مقعدها ووقفت خلفه ممسكةً بأعلى ظهره. كان عنفوانها أكبر بكثير من عمرها، لدرجة أن طغى عليه بشكلٍ صارخ، "يا لها من فرس!" علّق بيتر في سرّه، بينما بدت السيّدة تحلّق أثناء متابعتها لحديثها: - فمنذ تلك الحادثة - حادثة المكتبة - وأنا أعيش في كل يوم من أيامي حياةً كاملة لشخصيّة أو شخصيتين أو حتى مجتمع. لقد مُنحت في غضون كل بضع ساعات إمكانية اختزال حيوات بكاملها، بكامل ما فيها من تحديات ومصاعب وأفراح وأتراح وخبرة، وعلى مدار العصور!

عاودت السيّدة الجلوس في مكانها وتابعت وكأنها تُسِرّ بأمر ما:

- لمعلوماتك؛ وبشكل عام، لكل شخصية تذكر بين جنبات الكتب هدفٌ ما تُكتب لأجله، على عكس العديد من الشخصيّات في عالم البشر، بالطبع تخُلق لهدف، ولكنها لا ولن تطاله، وقد لا تعرف عنه شيئًا! أليس كذلك؟

- ولكن أيُغني ذلك عن البشر الحقيقيّين؟ (بيتر، غير مقتنع)

"لا بد من أنه يحاول استفزازي .. ولربما كان أحمق بالفعل!" علّقت السيّدة في سرّها، ثم قررت عدم مجاراته في ما بدا أنه يسعى إليه. تابعت بهدوء: - وبقي الحال على ما هو عليه حتى ظهر السيّد روزسكي.

شعر بيتر بالإهانة لعدم إجابة السيّدة على تساؤله، "ولِمَ أتوقّع أن تكون أفضل حالًا من زوجها؟" تساءل في سرّه ثم تابع معها مكسور الخاطر: - لا بد من أن ظهوره كان مميزًا!

- لا لشيء سوى لغرابته، إذ ظهر السيّد توماس فجأة أمام والدي يطلب الزواج مني وكأنه يعرفني، وبدوره عمل والدي على معاينته وكأنه أحد مرضى مشفاه.

كان الفرق الوحيد في أمر المعاينة ذاك كونها من النواحي الشخصية والمادية لا الجسديّة. وكما هو متوقّع من السيّد روزسكي، نجح في المعاينة أكمل نجاح، مما منحه موافقة والدي

ليكون زوجًا لي، وكمحصلة لذلك طُلب مني استكمال الإجراءات.

- أتقصدين القول بأنك لم تقبلي به؟ (بيتر، متفاجئًا)

- بل لم أحصل على الوقت الكافي لأقبل.

شعرت السيّدة بإرهاق مفاجئ ظهر جليًّا على محياها. تابعت رغمًا عنه:

- تكتفي المجتمعات بتقييّم المتقدمين للزواج من النواحي الاجتماعية والمادية، وهذا بالطبع غير كافٍ.

- ما الذي ترمين إليه؟ (بيتر)

- التقييم النفسي أكثر أهميّة مما سبق ذكره، فالناحية النفسيّة خفيّة باحتراف، لدرجة أنها قد تكون خفيّة حتى على أصحابها! كما أن نتائجها أشد خطورة على الزواج وديمومته، خصوصًا إذا ظهرت لاحقًا في الوقت الذي يتواجد فيه الأبناء.

- ما تقولينه والسيّد براغ؟ ألم تكن حياتك جميلة معه؟ (بيتر، تائهًا بعض الشيء) - بل كانت مثالية. ولكن ذلك لا يضمن كونها حياة جميلة. (السيّدة)

تنهدت ثم أضافت:

- شتّان ما بين الأمرين!

- أعذريني، ولكنني أشعر أن كلماتك تختلط في عقلي. (بيتر)

استاءت السيّدة مارتينا من قلة حيلة صحفي العام في مجاراتها مرة أخرى، "معه الحق في ذلك"، علّقت في سرّها ممتدحةً نفسها بغرور على حسابه. ثمّ وضحت قائلة: - كان مثاليًّا في كل شيء، ولكنه في المقابل كان كشبح.

- كشبح! (بيتر، متعجبًا)

تعجّب بيتر من تشبيه السيّدة الذي استخدمته، وتواردت إلى ذهنه اللحظة التي شبّه فيها السيّد براغ بذات التشبيه، كما وتذكّر استياء السيّد منه عندما لامه بقوله "تبًا لتشبيهاتك منخفضة المستوى". أما السيّدة فتابعت ببراءة كلامها قائلة: - نعم كان كذلك، كان يعيش معي بجسده ليس إلّا، أما ذهنه فكان في مكانٍ بعيدٍ للغاية، وكأنه في كوكب مختلف. كان يشعرني طوال فترة زواجنا بأنه يعيش مع شخص آخر، أو أن شخصًا آخر هو من كان يعيش معي. لا أدري. ولكن كمحصلة لذلك استمرّ شعوري بالوحدة حتى بعد زواجي.

"لا بد وأنها تتكلّم عن الأنا الآخر خاصته، يبدو أنها لا تعلم شيئًا عنه"، علّق بيتر في سرّه ثم أضاف متعاطفًا: - يا له من شعور!

- كان يسمعني مطوّلًا .. (السيّدة)

- جميل. (بيتر، مقاطعًا)

- كيف يكون جميلًا وهو لا يستمع! (السيّدة، متسائلة)

أشار بيتر بيده معتذرًا عن مداخلته، أما السيّدة فتابعت:

- وفي أحد الأيام، وبالتحديد أثناء تناولنا لطعام العشاء، تحدّثت مع توماس عن رغبتي بقضاء إجازتنا القادمة في بلدة تشيسكي كروملوف، وبدوره أعلن توماس تأييده للفكرة بسرعة بالغ فيها.

- يا لك من محظوظة! (بيتر)

- محظوظة؟ كان من الجليّ أن موافقته كانت على أمرٍ لم يسمع منه شيئًا، بل مطلقًا، كم أزعجني ذلك!

- لعلّك ظلمته يومها؟ (بيتر، مدافعًا عن السيّد)

أضافت باستياء:

- تأكدت من ذلك عن طريق متابعتي لحديثي في عدّة مواضيع متناقضة أيما تناقض، ولكن بطريقة بدت وكأنني أتابع ذات الحديث المتعلق ببلدة كروملوف. كما وأطلت في ذلك!

- لا بدّ من أن السيّد توماس تنبّه إلى ذلك. (بيتر، باستهجان)

- لا. وبذلك تأكدت ظنوني وتبيّن لي أنه لا يستمع!

- يا لحظّك العاثر! (بيتر)

- عاثر! هذا ما كانت ستظنّه أيّة امرأة أخرى، أما أنا - مارتينا جيري - فلا. ما كان مني إلّا أن اعترفت لنفسي بالنقص الكامن في نصيبي ثم قنعت به وكفى .. كباقي النساء.

- أحقًا تقنع النساء بذلك؟ (بيتر، غير مقتنع)

- كباقي النساء؛ أعني وجود النقص في نصيبهنّ، وليس اقتناعهنّ به!

"يا لجبروتها!" أضاف بيتر في سرّه، ثم تساءل:

- ألم ينغّص عليكِ عدم استماعه لك؟ أقصد رغم قناعتك بالفكرة!

- ظننت ذلك في بادئ الأمر، ولكنني عندما حملقت في النصف الممتلئ من الكوب، وجدت أعظم ما تتمناه كل نساء الأرض.

- ألا وهو؟ (بيتر)

- رجلٌ يسمع! (السيّدة)

- أنا أيضًا جيدٌ في السماع. (بيتر، فخورًا بنفسه)

- إنه عملك، وليس صفةً متأصلة في تكوينتك. (السيّدة، نافية)

ابتسم بيتر في محاولة للتهرب من الإهانة المتضمنة في تعليق السيّدة، ثم تساءل:

- ما هي قيمة الرجل الذي يسمع بالنسبة للسيّدة مارتينا؟

- السيّدة براغ! (السيّدة، مُصحّحة لضيفها بغرور)

أبدت ابتسامةً ماكرة تابعت بعدها:

- إنه لا يُقدّر بثمن. فمع انقضاء العديد من السنوات التي سكنت فيها المكتبة، حدث وأن تراكمت في مخيلتي أعداد هائلة من الأفكار والشخصيّات والحوارات والمواقف والأحداث. تراكمت لدرجة أن فاضت بي، فاضت بحق، فباتت الأفكار المتنوعة تتقافز إلى ذهني والشخصيات المؤثرة تتداخل في شخصيتي.

- ألم يضفْ ذلك المزيج المزيد من الذكاء والثقة بالنفس بالنسبة للسيّدة براغ؟ (بيتر، بقصد المجاملة) - لا تقاطعني. (السيّدة، بانزعاج)

تنهدت بغضب، ثم أجابت سريعًا بغرور: "بالطبع"، لتتابع بعدها بهدوء:

- ولم يتوقف الأمر عند ذاك الحد وحسب، إذ تداخلت حوارات ومواقف وأحداث الكتب في بعضها البعض، وباتت شخصيّاتها تتسامر معًا وكأنها كلها من نفس الكتاب. والأدهى من ذلك أنهم زرعوا في ذهني ما معناه أنني أنا مجرّد زائرة وأنهم هم أصحاب الدار.

- هل أخافك ذلك؟ (بيتر)

- بالطبع لا. أتراني فاقدةً لعقلي؟ (السيّدة، باستياء)

"وهل لما قلتِه من معنى آخر!" تعجّب بيتر في سرّه، ثم أشار بيده مُعتذرًا. أما السيّدة فتابعت: - وفي خضم ذلك، وبمعيّة عدم استماعه لأحاديثي، دفعتني نفسي للتجرؤ على ما لم أتجرأ عليه من قبل.

- ماذا فعلتِ؟ (بيتر، بشكل فضولي)

- بل ماذا قلتِ! لقد قلت كل شيء، وقصصت عليه كل شيء، كل شيء.

أضافت السيّدة كجملة معترضة:

- بالمناسبة كان ذلك قبل أن يبدأ الكتابة بمراحل، وما زال مستمرًا.

لم يستوعب بيتر ما سمعه من السيّدة، ظهر ذلك على ملامحه بشكل صارخ مما استدعى من السيّدة التوضيح فقالت: - مكنني تكدّس الحيوات في ذهني من التعديل على العديد من حبكات الكتب التي سبق وقرأتها، سواء تلك التي أعجبتني منها أم لم تعجبني.

ومع التفكير المستمر والعميق ارتقى بي الأمر لاختلاق الأفضل للعديد منها. كان الأمر جد ممتع، وكنتيجة لذلك تصاعدت وتيرة الأمر لديّ حتى بِتُّ قادرة على استعارة ما أرغب من الشخصيّات المتراصّة في تكويني، فأجمعها في حبكات أفصّلها بنفسي بحيث تلائم المزيج الخاص الذي أرغب.

- وكيف كانت نتيجة ذلك؟ أكانت جميلة؟ (بيتر)

- بالطبع. (السيّدة، بثقة)

- هل قصصتِه على أحد غير السيّد براغ؟ (بيتر)

- لا، لا داعي لذلك. (السيّدة، بثقة)

- حسنًا؟ (بيتر، بقصد التساؤل عن ثقة السيّدة بنفسها)

- ألا يكفيني السيّد براغ؟ (السيّدة، بثقة)

- ولكنك ذكرتِ منذ قليل بأنه لا يستمع! (بيتر، متضايقًا)

- سواء استمع أم لم يستمع، هل تتوقّع أن يؤثر ذلك على السيّدة براغ؟

تذكّر بيتر وجهة نظر السيّد المتعلّقة بذات الموضوع، "لا بدّ من أنها تفكر مثله" علّق في ذهنه ثم صمت منسحبًا، أما السيّدة فتابعت فكرتها قائلة: - ألا ترى كمّ الأعمال الفنية الهابطة في هذه الأيام، والتي يُكافأ صانعوها والمشاركون فيها بفرصٍ أكبر رغم انتقادات ما يسمّى الجمهور؟

- ولكن للجمهور .. (بيتر، محاولًا إبداء وجهة نظره)

قاطعته السيّدة قائلة:

- لا وجود للجمهور في وقتنا الحاضر، إنهم مجرد مُتلقّين لما يُعرض عليهم، سواء كان ذلك رغبةً منهم أو سدًّا لداء الملل الذي يصيبهم. لا أنكر أن هناك عددًا بسيطًا من الأعمال الفنيّة التي تُصنّع في مصانع عظيمة، بمواصفات فائقة الجودة. وفي مقابل ذلك لا أستطيع التغاضي عن مخلّفات ذات المصانع - الأعمال الرديئة - التي تُطرح في قنوات المدينة، يشرب منه من يشرب ويتجنّبه سعيد الحظ الذي يتمكّن من ذلك.

نظرت السيّدة لبيتر نظرة جدّية ثم أضافت:

- فكما تعلم، ممارسة الشيء في أيامنا هذه منوطة بأمرين لا ثالث لهما؛ الرغبة في الممارسة، والرفاهيّة التي تمكّن من ذلك.

- الرفاهيّة؟ (بيتر)

- المال، الوقت، العلاقات أو جميعها. (السيّدة، موضّحة)

- ترى لمَ لم تكتب السيّدة مارتينا؟ كما فعل السيّد براغ! (بيتر)

تنهدت السيّدة بضمير، ثم صمتت مطوّلًا وسط تلاشي هيئة الفرس من حولها، وفي مقابل ذلك كان بيتر يغرق في حيرته جرّاء الحالة التي أصابتها. أضافت عندما اكتفت من صمتها:
- الأمر أعقد مما تتخيل، أعقد بكثير. ففي الإبحار في الخيالات حرّية مُطلقة، على عكس الكتابة المليئة بالقيود.

- أتقصدين .. (بيتر)

قاطعته السيّدة دون اكتراث قائلة:

- أشبه ما تكون الفكرة الناشئة في الذهن باللوحة المليئة بالتفاصيل التي تستطيع النظر إليها بمتعة وتمعّن، ككل وكجزيئات. أما الكتابة فلا؛ أشبه ما تكون الكتابة بتكبير ذات اللوحة عشرات ومئآت المرّات، ليتمّ المرور على أجزائها كلها، الجزء تلو الجزء ليوصف كل منها على حدّة.

وقبيل أن ينبس صحفي العام ببنت شفة أشارت السيّدة إلى لوحة معلّقة على أحد جدران الصالة، ثم قالت: - انظر إلى تلك اللوحة. أتراها؟

نظر بيتر حيث أشارت السيّدة، فوجد لوحةً لم يكن قد تنبّه لوجودها من قبل، وكانت تصوّر أطوار القمر.

- بالطبع أراها.

- صِف لي ما تراه فيها. (السيّدة)

- أطوار القمر! (بيتر، مستسهلًا)

- لم أسألك عن عنوانها، سألتك عن وصفها!

شعر بيتر للوهلة الأولى ببساطة طلب السيّدة، إلّا أنه تفاجأ بعجزه عندما طالب نفسه بالإجابة! "يبدو أنها على صواب، الأمر أعقد مما تخيّلته" علّق بيتر في سرّه ثم صدرت عنه بضع كلمات بشكل عشوائيّ قصد من خلالها محاولة الإجابة. تابعت السيّدة بغرور: - لا بد من أنك تتساءل "من أين تبدأ"، يا له من سؤال! دائمًا ما تكون البدايات الأصعب على الإطلاق. بداية الكتاب، بداية الفصل، وحتى بداية الصفحة والفقرة.

دعني أساعدك؛ بامكانك وصف اللوحة بشكل عشوائي، كما بإمكانك بدء وصف أحداثها من طور المحاق ثم تتدرّج منه حتى ظهور البدر، مقدمًا بذلك نهاية سعيدة، والأدهى من ذلك أنه بإمكانك ذكر الأمر بتسلسل زمني معكوس والبدء بالبدر والتدرّج منه حتى ظهور المحاق، مانحًا لنا نهاية حزينة.

هنا تكمن المشكلة، فمن السهولة بمكان - نسبيًّا - تخيّل فكرةٍ ما والتمعّن فيها وتعديلها والإضافة عليها، إلّا أن وصفها بشكل دقيق أو قصّها بطريقة مُثلى أمرٌ آخر.

- هل يعني ذلك أنك صرفت نظرك عن الكتابة؟ (بيتر)

- لا. لم أستسلم بعد. ما زلت أحاول بين الفينة والأخرى، وبذات مستوى الشغف رغم السنوات العجاف التي تعاقبت عليّ.

- ليس كل ما يتمنّاه المرء يدركه. (بيتر، مواسيًا)

- ولكنني أدركت ما تمنّيته .. نسبيًّا. (السيّدة، بثقة فظيعة)

أضافت كجملة معترضة:

- بالمناسبة؛ كل ما أقوله صالح للنشر.

- أتقصدين "غير" صالح. (بيتر، مُصحِّحًا)

- وهل كنت لتدخل قصري لو كان ما أقوله غير صالحٍ للنشر! (السيّدة، بانزعاج) كانت جملة ملغومة لم يفهم صحفي العام أبعادها الحقيقية. اكتفى باعتبارها مجرّد جملة معترضة، لذا ومن باب الاعتذار عن سوء فهمه، وبخجل شديد، أشار بيتر بيده وكأنه يغلق فمه بمفتاح.

وفي مقابل ذلك، ومن لا شيء، ووسط حيرة بيتر الـمُعتذر، تشكّلت مجددًا هالة الفرس حول السيّدة بشكل ساحر، منحتها عنفوانًا طاغيًا تابعت حديثها بمعيّته قائلةً: - رغم مثاليّة السيّد توماس التي لم تشبها شائبة سوى عدم إمكانية استماعه، لاحظت أمرًا غامضًا يتعلّق به، كان توماس شديد التركيز في كل ما يجري من حوله، شديد التركيز بشكل ملفت.

- عدم استماع وتركيز شديد. يا له من تناقض! (بيتر، متعجبًا)

- بالضبط هذا ما قلته لنفسي. ولّد هذا التناقض الخوف في نفسي لدرجة قادتني ذات مرّة لفكرة مجنونة مفادها أن توماس مسكونٌ من مارد ما، أو أنه مجرّد واجهة لشخص آخر، أو أنه رجل آليّ يتم التحكم به عن بعد.

- ما كانت لتتحمله امرأة أخرى سواكِ. (بيتر، في دور مساند)

عبّرت السيّدة عن انزعاجها من مقاطعة بيتر لها، ثم تابعت:

- أما أنا ففرّغت وقتي من أجله وراقبته عن كثب، وراقبت نفسي كي أتقن مراقبته، واستمرّ حالي على ما هو عليه حتى خلُصت إلى حقيقة أمره!

"أيعقل أنها اكتشفت أمر الأنا الآخر خاصته!" تساءل بيتر في سرّه وشعوره بالإثارة المجنونة على أشدّه. علّق صحفي العام مُجاملًا: - لا بد من أن ذلك تطلّب منك الكثير من الوقت. (بيتر)

"أحقًا هذا ما يثير اهتمامه؟" تساءلت السيّدة في سرّها بازدراء، لتتساءل بعدها إن كان صحفي العام قد عرف شيئًا ما من السيّد براغ في الأمس! "لا، لا أظن ذلك" نفت الفكرة لنفسها ثم علّقت بقسوة: - يتطلّب ذلك الكثير بالنسبة لك ولأمثالك. أما بالنسبة لي أنا "مارتينا" فلا، إذ لم يتجاوز الأمر معي أسبوعًا واحدًا.

تجرّع بيتر الإهانة الأخيرة بهدوء كما اعتاد منذ ليلة حصوله على لقب صحفي العام. تظاهر بعدم تعكّر مزاجه وتساءل: - ترى ما هي حقيقة أمر السيّد توماس التي خلصتِ إليها؟ (بيتر، وكأنه استدرك الأمر الأهم الذي كاد يفوته) "يبدو أنه عاد إلى صوابه أخيرًا" علّقت السيّدة في ذهنها ثم أجابت:

- إنه ينافس أحدهم! (السيّدة، بوجه شاحب)

"يا لها من امرأة! تكاد تعرف كل شيء من تلقاء نفسها" علّق بيتر في سرّه وهو يمثّل اندهاشه مما سمعه للتّو. أما هي فتابعت: - منذ لقائي الأول به، حافظ السيّد توماس على ظهوره الأشبه ما يكون بشعلة نشاط لا تعرف الكلل أو الملل.

- جميل. (بيتر)

- بل مثير للريبة. (السيّدة)

- لماذا؟ (بيتر)

- لماذا! ألا ترى أن شخصية كشخصية السيّد توماس لا تتناسب أبدًا مع البيئة التي نشأ فيها؟ (السيّدة) - ولكن .. (بيتر، متلعثمًا)

- وعطفًا على ذلك، كان نشاطه غير المبرر مُنصبًا "فقط" حول الأمور الروتينية التي يواجهها، أما الأمور الـمُستحدثة أو الطارئة، فكان يحتاج لما يقارب اليوم وهو يتهرّب منها ليتفاعل معها بعد ذلك بالشكل الأمثل.

- ولكن من يمتلك ذكاءًا كذكاء السيّد توماس لا يحتاج لمثل هذا الوقت. (بيتر، متماشيًّا مع فكر السيّدة) - بالضبط. وكأنه يقوم بعرض مستجدات أموره على أحدهم ليتحصّل منه على أفضل ما يمكن فعله معها، فيأتي في يومه التالي ويتعامل معها وكأنها من روتينيات حياته.

- ولكن من يمتلك شخصيّة كشخصية السيّد توماس لا يحتاج لفعل هذا! (بيتر، متماشيًّا مع فكر السيّدة مرةً أخرى) "متى حلّ عليه كل هذا القدر من الذكاء!" تساءلت السيّدة في سرّها وشكّها على أوجه حول اطلاع صحفي العام على أمرٍ هامٍ ما لا تعرفه. تابعت قائلة: - نعم، إنه يراقب أحدهم ويتنافس معه! (السيّدة، بوجه شاحب)

- عذرًا، ولكن ما لكل ذلك و إدراكك لما تمنّيته؟ (بيتر، متهربًا بتساؤل) - يا لك من عجول! (السيّدة، ضاحكة)

بالغت السيّدة بضحكها قليلًا ثم أضافت:

- تكشّفت أمامي - في خضم الحالة التي عشتها رفقة السيّد توماس - العديد من خفايا الأمور المتعلقة به، كان أهمها تأثّره الإيجابيّ الجليّ بكل ما يمرّ به أو يسمع عنه.

- ماذا تقصدين؟ كيف؟ أو بالأحرى؛ هل من أمثلة تذكرينها؟ (بيتر، غير مستوعب) - فعلى سبيل المثال، إن قصصت عليه قصةً عن زوج ما، كان في الغد زوجًا أفضل منه، وإن قصصت عليه قصةً عن أبٍ ما، كان في الغد أبًا أفضل منه، وقس على ذلك. كما أن الأمر لم يقتصر على قصص كتلك وحسب، بل شمل أيضًا سيل الأخبار العابرة التي تتسلل إلى مسامعنا ليلًا نهارًا.

- الأخبار؟ (بيتر)

- نعم الأخبار، ألا تشير أخبارنا إلى حياواتنا بصورة أو بأخرى، ولربما تؤثر عليها؟

- كما هو الحال إن علم بهديةٍ ما أهداها أحدهم لآخر؟ (بيتر، متظاهرًا بالذكاء) - ما كان ليضيّع فرصةً بأن يجلب لأحدهم ما هو أفضل منها. ولكن في الغد! (السيّدة، مبتسمة) - عذرًا مرةً أخرى، ولكن ما لكل ذلك و إدراكك لما تمنّيته؟ (بيتر، كتائه) "ترى كيف تمكّن هذا من الحصول على لقب صحفي العام!" تساءلت السيّدة في سرها باستياء ثم أجابت بتعالٍ:
- بمعية ما سبق وذكرته.

نظر بيتر للسيدة نظرة شديدة البلاهة أجبرتها على متابعة حديثها بسرعة فقالت:

- كنت قد امتلكت بيديّ المفاتيح الخفيّة التي ستتحكم لاحقًا في مسار السيّد براغ الأدبي. (السيّدة، بقوة ألف حصان) - لا يعقل! (بيتر، كما لم يندهش من قبل)

- بل يعقل. (السيّدة، بغضب)

نهضت السيّدة بجبروت ساحرة، وأخذت تتجول في الصالة بطريقة لا تخلو من القلق. ورغم ضآلة حجم تواجده، تمكن القلق من الانتقال بسهولة إلى صحفي العام الذي شكّل له بيئة مثالية حاضنةً له. ولتمرّسها في الحياة، تنبّهت السيّدة مارتينا على ذلك فاستبقت مداخلة بيتر وخاطبته بقسوة غير مبررة ألجمته فيها.

- اصمت. (السيّدة)

رغم براءته، نظرت صوبه بحدّة لم يشهد بيتر مثلها وأضافت:

- لا داعي لأن تقاطعني.

عاودت السيّدة الجلوس على مقعدها وهي تشعر بكونها قد بالغت في تصرّفها، بالطبع لم تندم إلّا أنها أخذت تلملم انفعالها. وعندما سكنت أخذت تسرد ما كانت تتوق لسرده منذ سنوات: - بدأ كل شيء عشية احتفالنا بذكرى ميلاد السيّد توماس الثلاثين، كانت تلك

الليلة مثاليّة درجة الكمال، لمسته فيها كما لم ألمسه من قبل قط. لا أعرف لماذا، ولكنني شعرت أن ما بعد تلك الليلة لن يكون كما قبلها.

- كيف شعرتِ بذلك؟ (بيتر)

- كان ليلتها يستمع للكون بكل جوارحه. (السيّدة، متأثرة)

تنهدت بحزن ثم أضافت:

- وكما توقّعت، وقعت الكارثة في صبيحة يومنا التالي!

- كارثة! (بيتر)

- أعظم كارثة، إذ لم يستيقظ السيّد توماس.

تعجّبت السيّدة من عدم اندهاش بيتر مما سمعه، ورغم ذلك تابعت سردها بحرفيّة أخفت تعجّبها قائلة: - وتبيّن لاحقًا أنه قد دخل في غيبوبة.

- ماذا! (بيتر، مستدركًا الخطأ الذي وقع به)

- تخيل! (السيّدة، باستهزاء كاشفةً حركات ضيفها)

تبادلت السيّدة مع صحفي العام بضع نظرات ناطقة، عبّرت السيّدة فيها عن يقينها من معرفة بيتر للكثير مما توّد قوله، وربما أكثر، أما صحفي العام فكان همّه الوحيد محاولة نفي ما توصّلت له السيّدة. تابعت السيّدة: - كانت تلك الأيام عصيبة للغاية، خفت فيها كما لم أخف من قبل، على شخصٍ ما ظننت أنني سأخاف عليه قط. نعم، كنت قد اكتشفت وقتها مقدار حبي للسيّد توماس.

وقبيل انهياري مما أصابه، استنجدت سريعًا بأفضل أطباء مستشفى والدي - حيث كان يعمل توماس كطبيب - فهرعوا إلينا وقدّموا كل ما كان بالإمكان.

ورغم جهودهم، بقي السيّد توماس على حاله خمس ليال، فقدنا أثناءها الأمل بعودته خمسمئة مرة على الأقل.

ابتسمت كعاشقة خجولة ثم تابعت:

- إلّا أنه مع انقضاء ليلته الخامسة استيقظ.

- ترى كيف مرّت تلك الفترة على السيّدة مارتينا؟ (بيتر)

- كنت على الدوام بجانبه، أحدّثه حينًا، وأقرأ له حينًا.

أضافت كمن تبوح بسرّ ما:

- دخلت بعدها في حالة أدمنت فيها قص الحكايا على مسامعه قبيل نومه، وكل يوم، ولم أكن أكتفي بذلك، إذ كنت أتابع حتى أنام بجانبه.

"كم تحمّل!" علّق بيتر في سرّه ساخرًا رغم خشيته كشف أمره، أما تعليق السيّدة فكان كالتالي: - كم أبدعت في ما فعلت! ويمكنك رؤية ذلك ضمن ما انفجر به السيّد توماس من الأدب "بعدما أتخمته بما لديّ". (السيّدة، بغرور) - ألم يتعبك ذلك؟ (بيتر، متظاهرًا بالبراءة)

- بالطبع لا، كان ذلك كهواية لي، كما أن السيّد توماس كان حريصًا على أن يترجم لي في يومنا التالي كل ما اقصّه عليه أجمل ترجمة. ترى أيتمنى المرء شيئًا أكثر من ذلك؟

- يا لك من محظوظة! (بيتر)

"أتراه يسخر مني؟" تساءلت السيّدة براغ في سرّها مغتاظةً، ثم تابعت وتوهّج اللمعان في عينيها على أشدّه: - بدأ ذلك في نهاية الليلة الأولى من ليالي غيبوبته، وكخاتمة لكل ما تفوّهت به يومها، توّجت جهودي الأدبية وقرأت له "أسطورة فراشة المورفو مينيلوس وشجرة الكولهمة".

- لا أظنني سمعت عنها من قبل. (بيتر، مُعتصرًا ذاكرته)

- بالطبع لم تفعل يا هذا، فهي من بنات أفكاري. (السيّدة، بفخر)

- حسنًا! (بيتر، بترقّب)

- وفي نهاية الليلة الثانية من ليالي غيبوبته قرأت له "أسطورة ثور الأوروخس وهضبة الجولان".

وأثناء متابعة السيّدة لذكر أساطيرها الخمسة التي تماشت مع ليالي غيبوبة السيّد براغ، أخذ صحفي العام يتذكر اللوحات غير المتناسقة التي شاهدها خلف مكتب السيّد؛ لوحة الفراشة، الثور، الغراب، التنين والثعلب.

- أتسمعني؟ (السيّدة، وكأنها توقظ بيتر من أحد أحلام يقظته)

- بالطبع! تابعي من فضلك. (بيتر، كمن استيقظ للتوّ)

- لم يعد هناك الكثير لأتابع.

ابتسمت السيّدة بخبث، ثم تابعت:

- ومع نهاية فترة تعافيه بدأ يكتب!

عم الصمت المكان. إذ لم يجرؤ بيتر على ذكر أي كلمة أو الإتيان بأي حركة تشي بمعرفته بأمرٍ ما قد يحتاج للاعتراف به، ولذلك، ودون أن يقصد، تأكدت السيّدة من عدم خلوّ جعبة ضيفها من أسرار السيّد براغ.

"إنها تدفعني لاستنتاج أمرٍ ما تتوق لقوله!" قال بيتر في سرّه وهو يفكّر.

- "ولكنني أدركت ما تمنّيته .. نسبيًّا". (بيتر، مكررًا كلام السيّدة بتمعّن) بينما تابع بيتر التفكير بجدّ، استمتعت السيّدة بغرور وهي تتبسّم ابتساماتٍ خبيثةٍ خُبثَ أفعى. وظل الحال على ما هو عليه حتى جاءه الاستنتاج الذي ترغب، جاءه على هيئة صاعقة فلقت رأسه لعشرة أقسام على الأقل!

"لا بدّ من أن أتكلّم معها بصراحة، إنه الأفضل لي ولها" قال بيتر في سرّه مُحفزًا، ثم جمّع شتات نفسه وقال: - "ولكنني أدركت ما تمنّيته". (بيتر، برباطة جأش لم تنتابه من قبل) ابتسمت السيّدة بخبث أفعى أكثر سميّة. تابع بيتر:

- يقولون: "وراء كل رجل عظيم امرأة".

حافظت السيّدة على ابتسامتها. تابع بيتر:

- وفي حالتنا الخاصة هذه أقول؛ وراء السيّد براغ سيّدة، أو لنقل بشكل أدق "وراء السيّد براغ الكاتب؛ السيّدة براغ الكاتبة".

نهض بيتر من مكانه لينحني أمام السيّدة إعجابًا ثم قال:

- يبدو أن العالم سيعي متأخرًا كونك أنتِ البنّاءة الحقيقية لإمبراطورية السيّد براغ الأدبية.

ووقتها تمكنت السيّدة من التنهد تنهيدة كافأت عقودًا من الزمن، وفي مقابل ذلك تمكّن بيتر من لسعها للمرة الأولى والأخيرة في حياته، إذ استفسر قائلًا: - ولكن لماذا الآن!

ابتسم بيتر ابتسامةً ما كان ليقدر على إخفائها، أما السيّدة فتابعت ببرود قاتل:

- لأنه قرّر الاعتزال، اعتزال الكتابة!

خُضّ بيتر من سرعة وبرود ما سمعه، تابع متسائلًا:

- وإن كان واعتزل!

خطرت على ذهنه فكرة إبليسية لم يستطع أن ينفيها لنفسه. وضّح قائلًا:

- أم أنك تقولين بأنه أجبرك على الاعتزال!

- ماذا تتوقع مني أن أفعل؟ لقد فاجأني بقراره، حاولت إقناعه بالعدول عن قرار اعتزاله ولكن من دون جدوى.

- أي .. (بيتر، تائهًا)

- لقد كسر توماس القلم الذي أكتب به! (السيّدة، بحنق)

- ولكنك باعترافك هذا تسيئين للسيّد براغ، على الأقل نوعًا ما، أليس كذلك؟ (بيتر، مقهورًا) - وماذا عني؟ ألا يعدّ إجباره لي على التوقف إساءة؟ (السيّدة)

- ولكن هذا الأمر يخصّه بشكل رئيسي. (بيتر)

- أحقًا ذلك؟ وماذا عن النجاح الذي حققه في مجال الأدب "بسببي"؟ ألم يستحوذ بفكري على قلوب التشيكيين منذ ما يزيد عن الخمسين عامًا؟ أجبني!

اكتفى بيتر بالصمت، إذ عجز عن غير ذلك، أما السيّدة فتابعت بانفعال أشدّ مما قد يتوقعه:

- أجبني! ألم أمنحه ما يكفي ليتربع على عرش الأدب البراغي طوال ذلك الوقت، وحتى يومنا هذا وربما للمستقبل؟

- ولكن لماذا الآن! (بيتر، حائرًا)

أخذ يضرب كفيّه ببعضهما البعض وهو يتلفّت يمنةً ويساره ثم أضاف:

- أترغبين بسحب بساط جماهيريّته لصالحك؟ (بيتر، كحزين على تراث براغ المهدد) - أحقًا تظنني أسعى للشهرة؟ (السيّدة، باشمئزاز)

- لا، ولكنني لا أجد مبررًا لما تفعلينه!

انتفض العنفوان في داخل السيّدة، قالت من خلاله:

- كل ما أريده هو أن أبرر للبراغيين أمر توقفي عن الكتابة.

- ولكنهم لا يعلمون شيئًا عمّا تريدين تبريره. (بيتر)

- أنت ستجعلهم يعلمون.

- ولكن ذلك قد يسيء لك بشكل مباشر! (بيتر، محذّرًا)

- وهل عليّ أن آبه بذلك!

ابتسمت السيّدة لضيفها ابتسامة لم يفهم مغزاها، ثم نهضت وتوجهت لباب الصالة، ومن هناك نظرت صوبه وقالت: "لا تبالغ فيما ستفعله! وإلّا سأنتقم"، ابتسمت مرةً أخرى أجبرت بيتر على القيام لتحيتها ثم غادرت بسكون.

المشهد العاشر

العمل الأخير

"أنا؟" تساءل صحفي العام في سرّه إن كان هو المقصود بأمر السيّد براغ بالتوقف أم لا، فرح، لم ينكر في قرارة نفسه بأنه فرح لمجرد احتماليّة استهدافه بالأمر المذكور. ورغم ذلك التفت صوب السيّد ببطء شديد خوفًا من مغبة تعرضه لخيبة أمل جديدة تقسم ظهر تحمّله.

- أتحدثني؟ أنا؟ (بيتر، متسائلًا بحذر)

- بل أحدّث إدوارد. (السيّد، ببرود)

كم كانت قاسية خيبته تلك رغم إيمانه باحتمالية حدوثها! صَعُبت على بيتر نفسه لدرجة أن كاد يبكي، لقد قهره السيّد، قهره بلؤم، وتصاعد الوضع أكثر عندما أخذ السيّد يقهقه.

- إنني أمازحك، بالطبع أحدّثك أنت، اقترب. (السيّد، غير نادمٍ على ما فعله) لم يأتِ صحفي العام بأي حركة تذكر. كرّر السيّد بصرامة:

- اقترب.

- أعذرني، ولكنني مضطر للرحيل. (بيتر، وهو يقترب من السيّد) كتم السيّد ابتسامته وهو ينظر إلى أثر فعلته على ضيفه، وأثناء ذلك أشار عليه ليجلس قبالته. جلس بيتر كما أُمر منه ووجهه وجه طفل حزين يرغب أشدّ الرغبة بأن يسترضيه أحد ما.

- يبدو أنك غاضب بعض الشيء.

حافظ بيتر على هيئته، أما السيّد فصرخ مناديًا:

- إدوارد! أعد الحذاء لمكانه.

اقترب إدوارد ليستلم الحذاء المتنازع على أحقيّته بالبقاء في الصالة، وأثناء اقترابه لاحظ بيتر كون وجه إدوارد مألوفًا بالنسبة إليه، "نعم، يبدو وجهه مألوفًا"، علّق بيتر في سرّه مستاءًا من توقيت ملاحظته، "لعل ذلك من تأثير رؤيتي له على مدار يومين متتاليين" أضاف في سرّه مبررًا.

- بالفعل لا داعي له، لم يلزمني طيلة فترة ملازمتي لك. (بيتر، متلاعبًا بالنار باستخدام بضع كلمات) مُضطرًا، قرر السيّد توماس تأويل مقصد بيتر بشكل خلا من أي إساءةٍ محتملة، وفي سبيل إظهار حسن نيّته تنازل وبادر قائلًا: - ألا تود طرح أيٍّ من الأسئلة؟

أجاب بيتر مرتجلًا بغضب:

- استخدام موضوع كموضوع "الأم" ليكون الخطوة الأولى في طريق الشهرة أمر رخيص للغاية.

- ولكن رخص الوسيلة لا يسيء إلى ما ينتج عنها. أليس كذلك؟ (السيّد، بمكر) "يبدو غاضبًا بالفعل" علّق السيّد في سرّه، وفي المقابل تابع بيتر هجومه بصوت مُتهدّج: - وماذا عن ألقابك العشرة؟ ماذا أضافت لك؟ أو بالأحرى لم قبلت بها؟

ابتسم بخبث ثم أضاف:

- خصوصًا وأن أمثالك لا يأبهون بمثلها!

- ألم يقبلها من قبل؟ (السيّد)

- من؟ (بيتر، منفعلًا)

- هو - الأنا الآخر خاصتي - قبل بها قبلي، فما كان مني إلّا أن فعلت مثله. (السيّد، ببرود) - أرجوك، لا تقل لي بأن له قدرة على معرفة الغيب؟ (بيتر، باستياء من تكرار السيّد للحديث عن الأنا الآخر خاصته) - لا تكن أحمق يا هذا! لم يكن الأمر غيبيًّا، لقد تم الإعلان عن أول حفل تم فيه توزيع جوائز براغ قبل موعده بقرابة الشهر، وكما تعلم كانت فرصتي بالحصول على ذاك اللقب مضمونة. (السيّد، بغرور) - لمدة عشر سنوات؟ (بيتر، غير مصدق)

- وأكثر. حتى أكتفي أنا، وبكامل إرادتي. (السيّد، بغرور) - وماذا عن لقب "السيّد براغ"؟ (بيتر، مدافعًا عن فكرته بضراوة) ابتسم السيّد توماس ابتسامة فارغة وجّهها لما بدا ككائنات غير مرئية، كان منظره مخيفًا إلى حدّ ما. تابع بعدها: - يا له من لقب! "السيد براغ". رغم بساطته، كان أوضح انتصارٍ حققته في مسيرته ضده.

- ألم يحصل عليه قبلك كما العادة؟ (بيتر، تائهًا) - يا لك من أحمق! ألم ترَ كيف أعلنوا عن اللقب في تلك الليلة؟ ألم تشعر كيف ظهر الأمر وكأنه ارتجاليّ.

أشار السيّد نحو بيتر وتساءل مستنكرًا:

- ألم تكن معنا في تلك الليلة؟

تساءل بيتر في سرّه عن السبب الذي دفع السيّد لانكار معرفته بحضور بيتر للحفل، وفي مقابل ذلك ها هو يعترف أخيرًا بالأمر بكامل البرود. أضاف رغم يأسه: - بلى. (بيتر)

- فكيف لي أو للأنا الآخر خاصتي توقّع حدوثه! تفاجأنا به تمامًا كما تفاجأت مارتينا به!

- رغم أن اللقب طالها! (بيتر)

- نعم. (السيّد)

- لعلها تستحقه! (بيتر، محاولًا استفزاز السيّد) - لم لا؟ (السيّد، شاردًا بذهنه)

لم يفلح بيتر باستفزاز السيّد، لذا قرر متابعة حديثه عن الأنا الآخر المقصود: - معنى ذلك أن لقب "السيّد براغ" أغضبه - الأنا الآخر خاصتك - أو أنه أحزنه على أقل تقدير.

- ظننت أنه سيتجاوز أمر ذاك اللقب، إذ سبق وحصد العديد من الألقاب من قبل.

ضحك ثم أضاف:

- أتقصد بسؤالك التأكيد على عدم احترام البشر لبعضهم البعض بدون ألقابهم أو أموالهم أو شهاداتهم أو أي شيء يخصّهم ولا يخصّ سواهم، حتى وإن كانت أمورًا بلا معنى! (السيّد) - وكذلك الأمر بالنسبة للخاصة! أليس الأنا الآخر خاصتك منهم؟ (بيتر) تنهّد السيّد ثم أضاف منسحبًا للمرة الأولى:

- دعك من ذلك، دعني أُعلمك بالأمر الذي جعلني أوافق على مقابلتك هذه.

- عفوًا! ولكن أليست الدعوة دعوتك من الأصل؟ (بيتر، مندهشًا) - بالطبع لا! (السيّد، دون أدنى اكتراث) رغمًا عنه، توارد لذهن صحفي العام نص الدعوة التي تلقّاها - نودّ إعلامك بأنه قد تمت الموافقة على منحك الفرصة النبيلة لتملأ دور الصحفي في اللقاء - "ترى من الذي أقحمني في هذا الأمر!" تعجّب بيتر في سرّه مئة مرة على الأقل! أما السيّد فتابع كلامه كبريء بعدما أثار زوبعة تساؤلات في ذهن ضيفه المسكين: - كان قراره باعتزال الكتابة غير متوقع على الإطلاق.

- لا بد من أن التعب دفعه إلى ذلك؟ (بيتر) - لا أظنّه كذلك، ليس التعب من يطال مِن مَن هم مثلنا. بدا الأمر مختلفًا، أظنه استسلاماً. نعم لقد استسلم. (السيّد) - وقد لا يكون منوطًا بالاستسلام، لعلّه كان ينشد الراحة والسكون والتوقف عمّا جرى ويجري بينكما طوال الوقت. (بيتر) - لست مضطرًا للتفكير مثلك.

تضاحك بضع ثوانٍ ثم تابع:

- أحقًا عليّ ذلك؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ عندما أتت الفرصة الصريحة التي توّجت فيها على حسابه؟ (السيّد) - عذرًا، أحقًا قلت لتوّك بأن الأنا الآخر - خاصتك - توقّف عن الكتابة! (بيتر، مستدركًا أمر اعتزال السيّد الكتابة) نهض السيّد توماس متثاقلًا وتوجّه نحو الواجهة الزجاجيّة وسط ذهول ضيفه، ومن عندها أضاف: - نعم اعتزل، وجدته في أحد الليالي يعلن عن سبق إصرار وترصّد توقفه التام عن الكتابة، وبشكل نهائيّ!

- كيف؟ (بيتر، مندهشًا)

- هكذا!

توجّه السيّد نحو مكتبه وتناول أحد أقلامه، أمعن النظر فيه ثم كسره دون مبالاة، وألقاه بعد ذلك بين قدميّ بيتر منزوعة الحذاء، وعندما استقرّت على الأرض أضاف: - هكذا! كسر قلمه، ثم توجّه للنوم!

أمعن بيتر النظر في القلم المكسور بين قدميه ثم تساءل:

- وماذا عنك؟ (بيتر، أكثر اندهاشًا)

كثمانيني، جلس السيّد خلف مكتبه بتروٍّ ثم أجاب:

- استيقظت فزعًا أندب حنجرتي التي تم استئصالها.

- ولكنك لم تعلن ذلك للملأ بعد! أليس كذلك؟ (بيتر) - أعلنته؛ لمارتينا زوجتي. (السيّد)

تدارك السيّد فأضاف:

- وإدوارد كذلك الأمر. ألا يكفي ذلك؟

نهض بيتر من مكانه وقال متأثرًا بحماسة:

- لقد وصلت الرسالة سيّد توماس، سأتكفل بالباقي.

ظنّ بيتر أن الهدف من وجوده قد تحقق، كما ظنّ أنه باستباقه للأحداث - الإعلان عن نهاية المقابلة - يقي نفسه من آخر ما قد يوجهه له السيّد من إساءات مبطنة أو غير مبطنة، إلّا أنه وقبيل أول خطوة كاد يخطوها تفاجأ بالسيّد يخاطبه قائلًا: - يا لك من أحمق!

- ماذا! أنا؟ (بيتر، بوجه مصدوم)

- من قال لك بأنني أنهيت كلامي!

- ألم تعلن للتوّ اعتزالك؟ (بيتر، مبررًا) - ومن قال لك بأن هذا هو ما أردت قوله؟ (السيّد، بازدراء) - وهل هناك ما هو أهم من ذلك؟ (بيتر)

عاد بيتر وتموضع في مكانه السابق، ولكن بأدب أشدّ. أما السيّد فتابع غاضبًا: - أنا هنا من يعلن عن موعد انتهاء المقابلة ولست أنت، تذكّر ذلك يا هذا.

أومأ بيتر برأسه معبرًا عن ندمه، ابتسم السيّد له ابتسامة جافّة ثم أضاف: - أنت هنا لأحدّثك عن عملي الأخير.

- الأخير! (بيتر، متحمسًا كما لم يتحمّس قط) تابع السيّد بصوت نقيّ:

- كنّا قد بدأنا - قبيل اعتزاله - في عمل أدبيّ جديد يتمحور حولهم. (السيّد، مشيرًا إلى اللوحات الخمسة المعلّقة خلف مكتبه) منح السيّد ضيفه الوقت الكافي لإعادة التحديق في اللوحات. ثم تابع: - كانت فكرة العمل تتمحور حول لقاءٍ مفترض يجمع هؤلاء، معًا في نفس المكان، أو بالأحرى في نفس حلبة الصراع. (السيّد، مشيرًا للوحات) - فراشة، ثور، غراب، تنين وثعلب! ماذا يعني هذا؟ (بيتر) - يرمز كل من هؤلاء إلى أكثر الشهوات دناءة، إنهم رموز سحر الجمال والقوّة والطمع وغرور العلم والسلطة. (السيّد، باشمئزاز) - لا بد من أنك تتكلّم عن أبطال رواياتك الخمس الأخيرة.

- يبدو أنني أمام المرّة الأخيرة التي تثير فيها إعجابي. (السيّد، ضاحكًا) فور سماعه لذلك، تيقّن بيتر من اقتراب انتهاء مقابلته مع السيّد، استاء لذلك بشدّة متناسيًا محاولته السخيفة لإنهائها منذ قليل، أما السيّد فتابع حديثه كحائر: - تكمن المشكلة في أنه تخلّى عنّا.

- الأنا الآخر خاصتك؟ (بيتر، متسائلًا)

- ومن غيره! تركني وحيدًا أنظر إلى هؤلاء. (السيّد، وهو ينظر إلى سقف الغرفة ويشير إليهم) تابع متأثرًا:

- رجل بقلب فراشة، رجل بقلب ثور، رجل بقلب غراب، رجل بقلب تنين ورجل بقلب ثعلب.

أضاف بينما كاد بيتر ينفلق من شدّة التركيز:

- اجتمعوا جميعهم في مكان ما بدا كجزيرة مجهولة، لا استطاعوا الخروج منها ولا استطعت تركهم فيها، تركنا على حالنا أيامًا عصيبة.

أضاف وكأنه يسرّ بشيء ما:

- في السابق، كانت هذه اللوحات معلّقة خارج الصالة، عند الدرج اللولبي الذي عبرته في طريقك إلى هنا، أتتذكره؟

- بالطبع. (بيتر، كطالب متملّق)

- بالطبع تفعل! (السيّد، بازدراء)

تابع السيّد وكأنه لم يتفوّه بما يسيء:

- من شدّة جموحهم وصل بهم الحال ليتجاوزوا حدود لوحاتهم الفسيحة ليأتوا إلى حيث نحن هنا.

توجّه صوب مكتبه وتابع:

- إلى حيث مكتبي هذا!

أضاف مضطربًا:

- كانوا يدفعونني دفعًا للمضيّ في كتابة مصائرهم، وكلٌّ حسب ما يرغب!

- أحدث وأن كتبتها؟ أقصد مصائرهم؟ (بيتر، متعاطفًا) - أنا! كيف لي أن أكتب من بعد اعتزاله! (السيّد) - ماذا! (بيتر، متعجّبًا)

أضاف متسائلًا:

- ماذا عن الأنا الآخر خاصتك؟ ألم تتحدث معه؟

- اختفى. (السيّد، كطفل)

- وماذا بعد؟ أكتبت ما أرادوه؟ (بيتر، أكثر تعجّبًا) - لا. (السيّد)

أضاف كجثّة:

- هم من فعلوا ذلك. (السيّد)

- كيف؟ (بيتر، متعجّبًا أكثر)

- انصهروا في محبرتي وكتبوا مصائرهم بأنفسهم. (السيّد) أضاف السيّد وهو يحدّث الكون:

- بئس المصائر تلك التي كتبوها.

- ألا وهي؟ ماذا كتبوا؟ (بيتر، متسائلًا) - قتّلوا بعضهم البعض. (السيّد)

- ببساطة؟ (بيتر)

- نعم ببساطة، كما اعتادوا من قبل بساطة الدوس على الآخرين أثناء إشباعهم لشهواتهم. (السيّد) - ولكن .. (بيتر)

- ولكن مع تعديل بسيط فاجأهم، نعم لقد تفاجؤوا، لم يكونوا ليتصوروا أن يتقابلوا مع أشباههم من أصحاب الشهوات. (السيّد، مقاطعًا) - لدرجة أن قتّلوا بعضهم البعض؟ (بيتر، مستهجنًا) - بالسلاح الأبيض، أكثر الأسلحة صراحةً بالإجرام. (السيّد) - أحقًا هو كذلك؟ (بيتر، متسائلًا كجملة معترضة) - ألا يعدّ تقدّمك نحو ضحيتك وأنت تبسط له يديك علنًا لقتله عن قرب بالصراحة؟ وفوق ذلك تمهله بعض الوقت ليستوعب فكرة ضرورة توديعه لدنياه؟ (السيّد، كموظّف أمن جنائي) نظر صوب الواجهة الزجاجية ثم أضاف:

- حتى أنا، مُشكّل شخوصهم وطريقة تفكيرهم، كاتبهم. وجدت نفسي عاجزًا أمام الفُجر الذي أظهروه لحظة اجتماعهم. لقد سطّروا مجزرةً دامية من أبشع ما يكون! (السيّد، راغبًا بالتقيّوء) أضاف السيّد باستكانة:

- أتدري أين تكمن المصيبة؟

- لا. (بيتر)

- تكمن المصيبة في أن حدوث مثل هذا المجزرة يتم على مدار الساعة وفي العديد من الأمكنة، مجازر الشهوات! ألا يعدّ قطع الرزق مشابهًا لقطع العنق؟ ألا يعد استغلال الجمال لتحقيق بعض المآرب غدرًا؟ وماذا عن الغلوّ بالقوة ألا يعدّ تهديدًا بالقتل؟ وماذا عن الطمع؟ ألا يكون الغلوّ فيه على حساب أحد آخر، وقس على ذلك.

توجّه السيّد نحو مكتبه مترنحًا، فتح أحد أدراجه وأخرج منه مستندًا ما، قدّمه إلى بيتر بيدٍ مرتجفةٍ ثم قال: - خذ هذا وانشره.

- ما هذا؟ (بيتر)

- إنه العمل الأخير، الذي حدّثتك عنه للتو. (السيّد) - ما لي به؟ ألن تنشره بنفسك؟ (بيتر)

- لا، فلتنشره أنت. (السيّد)

- ولكنني .. (بيتر، متعنتًا)

- أعلم أنك ترغب بذلك. (السيّد، بخبث)

أضاف:

- ليكن بمعلومك، ستُضطر إلى نشره يومًا ما. (السيّد، كمنجّم) نهض صحفي العام ليتناول المستند، تناوله بامتنان ثم أركنه تحت إبطه وأحكم عليه القبضة. أما السيّد فابتسم لضيفه ابتسامة مودّع ثم قال: - انتهت المقابلة.

توجّه بيتر إلى باب الصالة، والأمل يعزّيه باحتماليّة حدوث ما يطيل المقابلة أكثر. وبالفعل حدث ما لم يكن في الحسبان!

- لا تنسَ حذاءك! (السيّد)

ضحك السيّد بلؤم كالعادة، أما بيتر وعلى غير العادة لم يشعر بالسوء، بل شعر بالحزن، نعم حزن على فراق السيّد لدرجة أن بكى!

- للخاصة سحر طاغٍ لا تُلام آثاره! ألم تسمع بذلك من قبل؟ لا بد من أنك ستسمع. سعدت بلقائك، رافقتك السلامة.

ثم توجّه السيّد براغ للمقعد الذي جلبه له بيتر أمام واجهته الزجاجية، وجلس عليه كجلوس ملك وابتسم.

لاحقًا ..

مضت بضعة أيام على زيارة صحفي العام لقصر ليختنشتاين، كانت هادئة للغاية، تفرّغ بيتر أثنائها بضمير لتحضير سبقٍ صحفيّ لم يوجد له مثيل في عموم الغرب.

وفي صباح أحد أيامه المشؤومة، وبعيد انتهاءه مما تفرّغ لأجله، قام بيتر - وهو بكامل رشده واعتزازه - بنشر أعظم إنجازاته المهنيّة تحت عنوان "السيّد والسيّدة براغ، الثنائي الأكثر شهرةً وخصوصيّةً في جمهورية التشيك".

كم تساءل الوسط الصحفيّ عمّا اكتسبه بيتر من الجرأة ليقوم بنشر ما نشره! وكيف تراهم لا يتساءلون وقد لخبط سبقه الصحفيّ الوسط الأدبي كلّه، وكأنه نشر زوبعةً بدت الأضخم في تاريخ مدينة براغ.

وكان مما زاد من شدّة الزوبعة التي أثارها صحفي العام أنه تطرّق لخبر اعتزال السيّد توماس للكتابة وكأنه خبر عابر، ليصبّ بعد ذلك جام حديثه على السيّدة براغ، السيّدة التي عمل بغلّ بالغ فيه على تصويرها بهيئة تلك الأرملة السوداء التي تنتقم من زوجها المعطاء شر انتقام، مع اختلاف بسيط ألا وهو أن انتقامها كان من ناحية إعلامية فقط.

وبسبقٍ صحفيّ كالذي قدّمه بيتر للعطشى من محبي أشهر كتّاب تشيك، ارتفعت أسهمه الصحفيّة - المرتفعة بالأصل - صوب أعالي السماء، وبات بالنسبة للمجتمع وحتى بالنسبة لنفسه المرشّح الأبرز للقب صحفي العام في العام القادم.

ورغم شهرته التي تلاطمت أصداؤها في الأرجاء، ورغم أهازيج الفرح التي أقامها في قلبه، ورغم استغراقه في أحلامه التي يحصل فيها على لقب السيّد براغ في المستقبل، شعر بيتر بشيء ما ينغّص عليه، كان شعورًا مزعجًا للغاية!

"لا تبالغ!" لم يكن ليدرك بيتر وقتها أن نسيانه لما أمرته به السيّدة مارتينا المسبب لشعوره ذاك، كما أنه لم يدرك أنه سيندم على ما فعله أشدّ الندم!

سابقًا ..

- ألا تخشين أن يذكرك بسوء؟ (إدوارد)

- لا بدّ من أنه سيفعل. (السيّدة)

- ماذا إن بالغ في ذلك؟ (إدوارد)

- لا تقلق. (السيّدة)

- وكيف لا أقلق؟ (إدوارد)

- سأنتقم منه على طريقتي. (السيّدة)

- لن تقتليه، أليس كذلك؟ (إدوارد)

- بالطبع لا! أتفعل ذلك السيّدة مارتينا! (السيّدة) - عذرًا لم أقصد، ولكن كيف ستنتقمين منه؟ (إدوارد) - انتقامًا نظيفًا، سأفعل ذلك بالكيفية التي تليق بي. (السيّدة) همّ إدوراد بقول شيء ما، إلّا أن السيّدة أسكتته بحركة من يدها وقالت: - لا تقلق، أعدك بأنه لن يجد أي مهرب. (السيّدة) **لاحقًا ..**

"ما الذي يحدث من حولي!" أخذ بيتر يتساءل بعدما وجد نفسه مرفوضًا من قبل أرباب الأعمال الذين أجمعوا على مقولة: "اسم السيّد بيتر أكبر بكثير من المواد التي يودّ عرضها ومن الشخصيّات التي يخطط للقائها".

ووسط خيبته التي طالت بما يكفي تذكّر بيتر هيئة السيّدة مارتينا وهي تحذّره بقولها: "لا تبالغ"، "ما كان عليّ أن أبالغ!" ندم بيتر على ما فعله بحق ثنائي براغ، ندم لدرجة جعلته يستعيد مجريات لقائه معهما، تذكّره كلمة كلمة، ومن حسن حظّه أنه فعل إذ تذكّر بمعيّة ما تذكّر المستند الغامض الذي قدّمه له السيّد توماس.

"كيف نسيته!" تساءل بيتر في سرّه وهو ينطلق باحثًا عنه، وعندما وجده، ركض به على الفور لينشره. كم كان بيتر محظوظًا بذاك المستند! – أو بالأحرى هذا ما ظنّه - إذ انتشله من القاع لقمّة أعلى من القمة التي وصل إليها إثر نشره لسبقه الصحفي المشؤوم. ومنذ تلك اللحظة عاد بيتر لواجهة الصحافة التشيكية.

سابقًا ..

- عذرًا، ولكن ماذا إذا استطاع الهرب من انتقامك؟ (إدوارد، بقلق) - سيجد نفسه في مواجهة انتقام أشد فتكًا. (السيّدة، بيقين) **لاحقًا ..**

مجددًا، لم يدرك بيتر أنه قتل نفسه للمرة الثانية بنشره لمستند السيّد براغ، بذات الطريقة التي أصاب بها نفسه في المرّة الأولى ولكن بدرجة أشد، إذ نشر عمل السيّد توماس تحت اسم "العمل الأخير" وكان اسمًا على مسمّى بالفعل، نعم لقد كان العمل الأخير بالنسبة إلى بيتر كصحفي. فمنذ نشره للعمل باتت مقولة: "اسم السيّد بيتر أكبر بكثير من المواد التي يودّ عرضها ومن الشخصيّات التي يخطط للقائها" تلاحقة ككابوس طال حتى أيقن الجميع بكونه لن ينتهي.

في البداية ..

دخل إدوارد منزله في وقت متأخرٍ من الليل، وعوضًا عن الهدوء المعتاد في ذاك الوقت وجد إدوارد ابنته تبكي بحرقة.

- ما الذي يبكيكِ يا صغيرتي؟ (إدوارد، قلقًا) - بيتر، طلب مني مغادرة حياته.

- لماذا؟ ألستما تعدّان للزواج في القريب العاجل؟ (إدوارد) - يقول أنه ملّ مني كما ملّ من العديدات من قبلي.

احتضن إدوارد الغاضب ابنته الباكية ووعدها قائلًا:

- لا تبكي يا صغيرتي، سأنتقم لك. (إدوارد، بحدّة) - كيف؟ (الابنة، برجاء)

- سأصطاده ببطاقة دعوة، تلدغينه فيها كما تفعل الأرملة السوداء.

- لا أفهمك؟ (الابنة، برجاء أكبر)

- ستفهمين، كل ما عليك فعله هو أن تفاجئيه في آخر أيام آب، مع عودته من ذاك الحفل الذي تمت دعوته إليه.

- ثم ماذا؟ (الابنة، مستسلمة)

- ألم تسمعي عن إمكانيّات الأب الذي يشهد دموع ابنته! (إدوارد، بحقد) **في اليوم التالي للبداية ..**

- أتمنى أن تناسبك فكرتي. (إدوارد)

- إنها فكرة رائعة، توصلني بالضبط لما أبتغيه، ولكن ما ذنب الصحفي! (السيّدة) أجابت نفسها قبل أن يجيب كبير الخدم:

- لأنه وصولي، يصل لما يبتغيه بمعيّة غيره، قبلت خطتك. فلنبدأ بتنفيذها.

- بكل سرور. (إدوارد، بعينين لامعتين)

أسطورة فراشة المورفو مينيلوس وشجرة الكولهمة

يحكى أنّه في قديم الزمان، قبل ما يقارب الألفي عام، قرر مجلس كبار أحد أسراب الفراشات الملونة، قرارًا حاسمًا يقتضي هجرة السرب من غابات وسط إفريقيا إلى حيث تشرق الشمس، إذ أنهكتهم فكرة التعرّض للاِفتراس على مدار العمر، مما أدخلهم في حالة قنوط من حياواتهم التي اقتصرت على كونها مجرد مجموعة لا منتهية من محاولات النجاة من الموت.

كان لديهم - مثل أيّ كائنٍ حيّ آخر - حلمًا بسيطًا للغاية، يقتصر على مجرد امتلاكهم لوطن يتسع ليرقاتهم وأحلامهم، وطنٌ لا تحفّه المخاطر وتتنعمّ فراشاته بالأمن في النهار وبالنوم بسلام طيلة الليل.

وبالفعل، انطلق سرب الفراشات في درب هجرتهم الذي أسموه من باب الاستبشار بدرب الأمل، فباتوا يحلّقون كل صباح ويركنون مع حلول كل ليل. مضوا لمصيرهم الغامض مُعَلِّقين على أوراق قَلَقِهِم آمالهم الـمُتَشَرنِقَة، قاطعين بها العديد من الأنهار والغابات والمسطحات الخضراء بكل ما في سرائرها من أفخاخٍ وكائنات مفترسة.

وعلى الصعيد المقابل لتلك العزيمة، ومنذ أول أيام هجرة سرب الفراشات، عمل الإعياء بصمت على نخر أجنحتهم التي رغم رقتها لم تستسلم وواجهت الأمر بصمود الحديد. واستمرت على صمودها أيامًا وليالي حتى اجتازت بأصحابها البحر الجميل المعروف باسم البحر الأحمر.

ولكن للأسف، كما هو متوقع من تلك الأجنحة الرقيقة، صدأت كما يصدأ الحديد، مما مكّن الإعياء من سقف أحلامهم، كان اجتيازهم للبحر كالقشّة التي قسمت قرون استشعارهم. لذا

قرر مجلس كبار السرب بشكل طارئ الاستيطان على متن أول شجرة ملائمة تظهر تحت مدى أجنحتهم الملونة.

انقضت بضع ساعات من بحث الفراشات المضني دون نتيجة تذكر، ورغم ذلك لم تيأس وتابعت بحثها، ولعلها كانت مُكافأة لصبرهم أن ظهرت أمامهم شجرة فريدة منتصبة بشموخ وكأنها تصرخ مُلوحةً لاستقبالهم. كانت الوحيدة بهذه الصفات في تلك الأرجاء وكانت تدعى شجرة الكولهمة الفتيّة. حقًا ما كانت الفراشات لتجد وطنًا أنسب من تلك الشجرة لتتخذها وطنًا، وجدوا فيها وما حولها كل المقوّمات المنشودة؛ الأمان، الماء، الغذاء، الحرية والأمل.

لذا وبشكل عملي سريع، وبعد التأكد من وفرة الموارد المطلوبة، عملت الفراشات على الاستقرار فوق أغصان الكولهمة لتنتقل بعد ذلك لموضوع التكاثر، إذ وجد كبار الفراشات في موضوع التكاثر أمرًا ملحًّا، وخصوصًا بعد سقوط عددٍ كبيرٍ من السرب أثناء درب الهجرة.

وبالفعل تساقطت العديد من بيوض الفراشات على أغصان الكولهمة وتماسكت مع بعضها البعض، لتظهر منها بعد بضعة أسابيع العديد من اليرقات الصغيرة. كان منظرهم مَبعث سعادة غير مسبوقة لكبار الفراشات، إذ شاهدوا بأم أعينهم للمرّة الأولى صغارهم وهم يتجوّلون على الأغصان دون أدنى مخاطر.

وكعادة الأيام السعيدة، مرّت سريعةً على اليرقات لتبدأ بالتستّر داخل أغطيتها التي بدأت بتكوينها حول أنفسها، مما منح شجرة الكولهمة فرصتها الأولى للتزّين بالشرانق الخضر. التي حافظت بدورها على هدوئها أيامًا طوالاً انتهت بتشققها وخروج من كنّ فيها كفراشات يافعة، خَرَجْن معًا كترميزٍ لبداية عهدٍ جديد عنوانه "شجرة الكولهمة تمطر فراشات بكل الألوان" بالفعل كان المنظر خلابًا للغاية.

لم تكن الفراشات لتتوقع كون نسلها بتلك الألوان المتنوعة التي ظهرت عليها، ظنّوا بادئ الأمر أنها مجرد طَفرَة ظهرت في ذاك التوقيت بالتحديد لتكون دلالةً لهم على حسن اختيار الكولهمة كمكانٍ لإقامتهم، إلّا أنهم تنبهوا بعد فترة لكونهم هم أيضًا ملونين بألوان الأرض جمعاء، من أنصع بياض حتى منتهى السواد.

كان من الرفاهية بمكان بالنسبة للفراشات النظر لأمور مثل ألوانها وأحجامها والاختلافات في ما بينها. كم كانت حياتهم قاسية! فمَن مِن الفراشات مَن كانت لتدرك كيف غيّبت قسوة الحياة ألوان أجنحة السرب عن أعين بعضها البعض، رغم احتواء كل عين من أعينها على آلاف العيون؟

ومن الجدير بالذكر أنه كان لفرط الأمان الذي حظيت به شرانق الكولهمة، دور محوري في تمكين جميع الفراشات من التحرر منها، باستثناء شرنقة واحدة، واحدة فقط لم تفعل! لتتوحد لنجاتها قلوب السرب، وكان ذلك من أجلها من جهة، وطمعًا بالحصول على الصورة الكاملة من جهة أخرى، الصورة المشرقة التي كادت تشمل نجاح الجميع بالبقاء للمرة الأولى في تاريخهم.

كانت الشرنقة غير الناجية حتى تلك اللحظة سوداء ذات رونق خاص، وباتت لأيامٍ الحديث الوحيد لفراشات السرب، ومع بزوغ فجر اليوم السابع، وبعد أن يئست أكثرهنّ تفاؤلًا، وعلى مرآها جميعًا، تشققت الشرنقة بيسر لا مثيل له لتهوي منها فراشة سوداء بسرعة مريبة، بسرعة من كانت تتوق بشدة للاصطدام بالأرض.

ولما يعرف عن الفراشة حديثة التحرر من الشرنقة بكونها لا تطير، تبيّن للسرب كون فراشتهم السوداء تلك هالكة لا محالة. إلّا أنها قبيل ارتطامها في الأرض بلحظات شرّعت جناحيها لتحلّق بهما تحليق الخبراء، فدارت دورةً كاملة حول الكولهمة لتعود بعد ذلك لحيث شرنقتها، في لقطة خاصة نادرة تستحق التخليد في تاريخ فن طيران الفراشات.

وكان مما عظّم من ندرة تلك اللقطة، ذاك اللون الأزرق النادر المنعش للعيون الذي تبين أنه يكتسي سطح جناحيّ الفراشة المُحلّقة، كان اللون مذهلًا للسرب لدرجة طغيان سحره على استعراض الطيران.

ومع عودتها للمكان حيث شرنقتها تجمهرت من حولها الفراشات للتغنّي بجمال لون جناحيها وسحر طيرانها. أخجلها مديحهم، أخجلها بحق، أما هي بدورها فكانت تؤكد لجميع المحتشدين من حولها بكونهم هم أيضًا يتمتعون بألوان مميزة. ومنذ ذاك اليوم عُرِفَت تلك الفراشة بلقب الفراشة الزرقاء، الفراشة التي استحوذت على إعجاب ومديح محيط الكولهمة بأكمله.

ومع مرور الأيام التي ازدحمت بالمديح المبالغ فيه للفراشة، تخلّت الفراشة الزرقاء عن خجلها، وألفت ردود أفعال المجتمع حولها، ومع انقضاء المزيد من الأيام على نفس وتيرة المديح، تحوّلت نفسيّة الفراشة للتقليل من قيمة ما تستمع له، شعرت بكون جمالها الأخّاذ وطيرانها الفذّ غير مقدرين حق التقدير في محيط الكولهمة.

ولم تلبث تلك الفراشة طويلًا حتى بدأ الأمر يزعجها بحق، إلى درجةٍ دَفعتها لتتأمر على السرب مطالبةً بتجديد خطاب المديح الذي من المفترض توجيهه لها. ثم تطور الأمر معها أكثر حتى باتت تهاجم الفراشات من حولها بذريعة قباحة تناسق ألوان أجنحتها المتعددة الألوان.

وهكذا وجدت الفراشة الزرقاء نفسها وحيدة، لم ينبذها السرب بل هي من نبذت نفسها لكونها "مميزة" على حد قولها، باتت لا ترغب في محادثة أي من الفراشات، حتى في موسم التزاوج، رفضت كل من حاول التقرب منها، كانت قد بدأت ترى نفسها كائناً ما غير الفراشات، كائناً مختلفاً، أعظم وأكثر أهمية.

ورغم ما آلت إليها الأمور مع الفراشة المنبوذة لم تغيّر من قناعاتها ولا حتى حاولت زعزعتها، وفي المقابل أوغلت في عنادها الفكري، لدرجة كُرهها لمحيط الكولهمة - الوطن

الأول للفراشات - بمن يقطنه، فقررت الانطلاق في رحلتها الخاصة، الرحلة التي ظنّت أنها ستوصلها للمكان الذي يليق بجمالها كما ينبغي.

انطلقت الفراشة الزرقاء مغادرةً محيط الكولهمة، فلمحها كبير السرب وانطلق بإثرها، ناداها مرارًا إلَا أنها لم تلتفت، فحاول إخبارها بأنها من نسل فراشات المورفو مينيلوس، وأنّ لها من المثيلات في عدّة أماكن على سطح المعمورة، وأنها لولا الكولهمة وفراشاتها لما كانت لترى نفسها مميزة.

إلّا أنها رفضت الاستماع لما يقوله ورفضت فكرة فهمها للغته "لغة الحشرات" على حد قولها، إذ وصلت لقناعة جديدة مفادها أنهم - فراشات السرب - عبارة عن مجرد حشرات لا أكثر، وأنها وحدها الفراشة بينهم، الفراشة الزرقاء المميزة.

فتابعت طريقها طويلًا لترافقها أثناءها حالة اشمئزاز من أن تطأ الأرض بأقدامها الستة، "ولا حتى بقدمين اثنتين" أكدت الفراشة الزرقاء حالة اشمئزازها قاطعةً أمر عودتها للأرض، واستمرت في طيرانها إلى أن خَلُصَت لما يُريحها. نظرت صوب السماء وقالت: "السماء مكاني"، وطارت باتجاه السماء حتى اختفت.

من الجدير بالذكر بأن كبير السربِ تمكن بالمصادفة من سماع الفراشةَ الزرقاء تدعو قبيل رحيلها قائلة: "فلتحترقي أيتها الكولهمة بمن حولك من الحشرات القبيحة"، لذا طلب من جميع فراشات السرب بالدعاء لبقاء شجرة الكولهمة.

ومنذ ذاك اليوم وحتى يومنا هذا، دعت ملايين الفراشات بطول بقاء شجرة الكولهمة، ولعل هذا السبب الذي استحقت به شجرة الكولهمة البقاء معنا لتعرف اليوم باسم شجرة الغريب.

أسطورة ثور الأوروخس وهضبة الجولان

يحكى أنّه في قديم الزمان، قبل ما يقارب الأربعمئة عام، وبين سلاسل جبال البرانس العظمى الفاصلة ما بين الأراضي الإسبانية والفرنسية، تمكنت ثيران الأوروخس من انتزاع السيطرة على منبع نهر أراغون من بين أنياب زمرة الأسود الضارية التي احتلت تلك المنطقة لعدّة سنوات.

ورغم الثمن الباهظ الذي دفعته الأوروخس في سبيل سحب تحقيق ذلك، تُعَدُّ السيطرة على منبع النهر إنجازًا عظيمًا بالنسبة لجميع الحيوانات في البريّة وخصوصًا غير المفترسة، إذ توفّرت لهم وللمرة الأولى منذ دهور إمكانية الحياة بأمان تامٍ ومُستمرٍ في إحدى أغنى مناطق غرب القارة الأوروبيّة بالطبيعة.

ولا يمكن أن يعزى الفضل في ذلك سوى لكبير الأوروخس وقائدهم المعروف بلقب "الجران تورو" الثور الأقوى والأضخم في القطيع، والذي امتاز بالإضافة لما سبق ذكره بلونه الأسود الدامس شديد اللمعان، والخط الأبيض الذي يزيّن أعلى ظهره كباقي الأوروخس ولكن أنصع بعدّة درجات.

ورغم ما حققه من إنجاز عظيم فاق إنجازات الجميع في البريّة، آمن الجران تورو بضرورة التوسع وعدم الاكتفاء بمنبع الأراغون، لما في ذلك من فائدةٍ عظيمة لبني جنسه، لذا تابع معاركه بذات الضراوة التي قاتل فيها غير آبه بما يقابله وما سيقابله من الأجناس المفترسة، ونتيجة لكدّه في سبيل تحقيق ذلك تمكن الجران تورو من إحكام السيطرة على كامل محيط سلسلة جبال البرانس.

وبالرغم من اليسر الذي رافق الجران تورو في مرحلة توسّعه، قرر قائد الثيران الإكتفاء عند ذاك الحد لتركيزّ سيطرته على الأرض من جهة، والالتفات لعائلته من جهة أخرى، إذ تزامنت

عودته من معركته الأخير مع ولادة صغيره الثالث، المولود الذي زاد حصيلة والده من الأبناء الذكور إلى ثلاثة.

وعلى الرغم من تشابه صغار الثيران لدرجة التطابق أحيانًا، وخصوصًا من ناحية ألوانها القريبة من اللون الأسود، كان من السهولة بمكان تمييز المولود الجديد للجران تورو، سواء عن الصغار بشكل عام أو حتى عن إخوته، إذ ولد بلونٍ مميز للغاية، لونٍ أحمرٍ من أغرب ما يكون.

أطلق الجران تورو على صغيره اسم روجو – أيّ الأحمر - وطلب من قطعان الأوروخس مناداته بذات الاسم، وكان يهدف بذلك إلى تخفيف وطأة اختلاف مولوده عن الآخرين، رغم أن لا أحد من قطعان الأوروخس وجد في اختلاف روجو أيّة مشكلة.

ولإصرار الجران تورو على وجهة نظره، أقنعت الأوروخس نفسها بكون لون روجو ظرفًا خاصًا يستوجب الدعم، ولذلك طُوّق ذاك الصغير منذ لحظة ولادته برعاية خاصة من الجران تورو شخصيًا ومن ثيران الأوروخس بالمجمل.

ومع مرور الأيام التي تضمنت توصيل كل ما قد يُحتاج إليه من قِبَل ثور إلى أحضان روجو، بدأ الثور الصغير يبدي ملامح كسلٍ لم يتمكن الجران تورو من فهمها؛ كنظرات عينيه الشديدة الخمول، ومعانقة رأسه للحشائش عند النهوض، والأمَرّ من ذلك كلّه حركته البطيئة التي أثارت شفقة الجميع حتى ممن هم من جنس الزواحف.

وبملامح بائسة كتلك، تأكدت ظنون الجران تورو بانعدام فرصة صغيره بالنجاة في الحياة البريّة القاسية، وكرد فعلٍ غير مدروس على ظنونه، بادر كبير الثيران بالإعلان عن تنظيم منافسةٍ قتاليّةٍ خاصةٍ تجمع صغار الأوروخس، شريطة أن تكون على مرآى ومسمع الجميع في البريّة وأن يُعهد إليه أمر التحكيم فيها.

وبالفعل بدأت المنافسة ضمن حضور برّي غير مسبوق، وكانت أولى المنافسات بين روجو وأحد الثيران الفتيّة، وقبيل إقدام أيّ من الثورين على الحركة، وخصوصًا الثور الخصم، أعلن الجران تورو عن فوز صغيره، وسط أصوات التشجيع التي ضجّ بها الحضور رغم استيائهم مما توصلوا له من فهمٍ لما ينوي الجران تورو فعله على حساب أبنائهم.

وجولةً بعد جولة، مضت تالي الجولات قُدمًا حامية الوطيس بين صغار الثيران، وتنتهي قبل أن تبدأ في حال كان روجو أحد أقطابها، واستمرّ الحال إلى أن حان وقت الجولة النهائية.

وكعادته في التحكيم لصالح صغيره، أعلن الجران تورو عن بداية المنافسة النهائيّة ليُتبع ذلك بالإعلان عن نهايتها، مُعلنًا الثور روجو بطلًا للمنافسة. إلّا أن ذلك لم يمرّ مرّ الكرام، إذ حدث ما فاجأ الجميع، لقد رفض الطرف الخاسر الاستسلام رافضًا فكرة الانصياع الذي قبله غيره من رفاقه في المنافسة.

وكتعبير عن اعتراضه هجم الثور المنافس على روجو الذي بدوره لم يحرّك ساكنًا، حتى تدخّل الجران تورو ليحمل صغيره فوق قرونه ويقذفه مباشرة فوق الثور المهاجم فيفقده القدرة على الحراك، مما منح الحكم المنظّم فرصةً حقيقيّةً ليجدد من خلالها تفوّق صغيره، وكل ذلك وسط شفقة الحضور على ما آل إليه حال قائدهم.

ومع الإعلان الثاني عن الثور المنتصر في المنافسة، انسحب الحضور من الأرجاء مفسحين المجال للثور الفائز ووالده الذي أخذ يتغنّى بانتصار صغيره، محفزًا إياه على مواصلة التدريبات ليتمكن يومًا ما من قيادة الأوروخس بجدارة. وكان الجران تورو وقتها قد نسي أن لديه من الأبناء من هم أحق بقيادة القطيع من بعده. لا بد من أن نصر ابنه المزّيف أعماه.

وفي المقابل، ورغم كمّ الدعم الهائل الذي حصل عليه، أخذ الصغير الأحمر يبكي بصمت جرّاء الطريقة المهينة التي منحه فيها والده الفوز في المنافسة، وخصوصًا لكون ذلك أمام العديد من الكائنات البريّة، ففي فرط الدعمِ والمبالغةِ فيه صورة من صور عدم الثقة

والانتقاص لدرجة الإهانة لمن يتلقاها، وهذا بالفعل ما حدث لروجو الذي لم ينم ليلتها إلّا عندما أضمر أمرًا ما في سرّه.

وفي صباح اليوم التالي، ظهر روجو بصورة مغايرة تمامًا لما طَبَعه في ذهن الجميع، إذ شوهد للمرة الأولى منذ يوم ميلاده وهو يجري لمسافات طويلة، لا يتوقف عنها إلّا للتدرب على مناطحة الأشجار الضخمة. وعلى الرغم من السعادة التي اجتاحت قلب الجران تورو، سيطر القلق على قلوب الأوروخس الذين شعروا بوجود خطب ما في الثور المنتفض.

ومع مرور الأيام التي حافظ فيها روجو على اجتهاده، بدأت مظاهر القوة تظهر على جسده بشكل ملفت، وفي المقابل كان ميله للصمت ملفتًا أكثر، وبقي الحال على ما هو عليه حتى بات روجو الأضخم بين الأوروخس وأبكم!

وفي يوم من الأيام، شعر الجران تورو بضعفٍ عام في جسده، كَبُر كما كَبُر حجم المفترسين الطامعين في أراضيه. كان قد أحسّ بذلك، ولاستباق الخطر القادم لا محالة، قرر قائد الأوروخس التنحي عن منصبه مفسحًا المجال لابنه البكر لقيادة القطيع. وكحق متعارف عليه بين الثيران، تقدّم ابن الجران تورو الأكبر عارضًا نفسه لمنازلة أي ثور يجد نفسه الأحق بقيادة الأوروخس.

ولقوّته التي لا تقل كثيرا عن قوة والده، تجنّبت أقوى الثيران مجرد التفكير في أمر منازلته، ليظهر أمر قيادة الأوروخس وكأنه محسوم! ولكن قبيل الإعلان عن القائد الجديد بلحظات، أعلن روجو عن رغبته في نزال أخيه وسط ذهول الجميع وألم والده الذي حاول من طرفه منع إقامة النزال دون جدوى. إذ وجد الأخ الأكبر في انسحابه إهانة لا تقبل.

وبالفعل تمّت المنازلة بين الأخوين، روجو المسلّح بقوّته لا بتحكيم والده هذه المرة من جهة، وأخيه المسّلح بسطوة الأخ الأكبر على الأخ الأصغر من جهة أخرى، وكانت المنازلة بينهما شبيهةً بمنازلات روجو السابقة من ناحية استهلاكها للوقت، ولكنها تمتاز عنها باختلاف نهايتها، إذ قتل روجو الثور الخصم، نعم قتل روجو شقيقه الأكبر، وبلمح البصر!

لم يصدّق أحد من الحضور ما حدث أمامه، كانت تلك اللحظات صعبة للغاية، وخصوصًا على شقيق الأوسط للثورين المتواجدين في حلبة الصراع. الأخ الأوسط الذي قفز أمام الأخ مطالبًا بدم أخيه وسط تكالب الخيبات على قرون الجران تورو التي آلت للكسر.

انتهت المنازلة الثانية بسرعةٍ أكبر من سرعة تدفّق دماء الثور الثاني المنهزم، ومع نهايتها هبط الجران تورو على الأرض، لم يعد يستطع النهوض، زحف صوب جثامين صغيريه ببطء شديد إلى أن وصل إليهما، ومن وقتها لم يتحرك! وفي المقابل لمعت عينا روجو لمعانًا خاطفًا كالبرق وأتبع ذلك بإصدار خوار مزلزل كالرعد، معلنًا نفسه قائدًا للأوروخس وسيدها، ليتوجّه بعد ذلك للنوم وكأن شيئًا لم يكن.

وفي صباح اليوم التالي أعلن القائد الجديد روجو عن رغبته بتوسّع نطاق سيطرته ليشمل أراضيَ جديدة، إذ سئم من الحدود التي قيده بها والده، وبالفعل انطلقت الأوروخس بأجمعها نحو الشرق، على حدود البحر الأبيض المتوسط، يهاجمون كل مفترس وضارٍ، وأثناء ذلك يضمّون كل من يمرّون بهم من الأوروخس المتفرقة، وبذلك زادت أعداد الأوروخس بشكل كبير ضاعف من قوة اقتحامها.

ومع مرور الوقت وعبور العديد من البلدان، شعر القائد روجو بعدم مقدرة القطيع على الحركة بالسرعة المطلوبة، وكانوا وقتها قد حلّوا ضيوفًا ثقالًا على أحد السهول المعروفة باسم سهول حوران، الذي امتلأ عن بكرة أبيه بثيران الأوروخس.

كان السهل بالفعل مكتظًا للغاية مما أصاب روجو بالانزعاج لدرجة الملل، وأثناء بحثه عن مخرج ما للوضع الذي تسبب به لنفسه، لمح روجو هضبةً ضخمةً للغاية تدعى هضبة الجولان، انطلق صوبها بسرعة فرس جامح، لعله يستطلع من فوقها مخرجًا ما لمأزقه، وهناك، من على ظهرها تفاجأ روجو بما شاهده أمامه، إذ كانت الأوروخس تحتل الأفق بأكمله!

وبينما كانت قرون روجو منتصبة نحو السماء افتخارًا ببني جنسه، اجتاحت جيوش هائلة من الجراد سهل حوران، وللعلاقة السيئة بين الفريقين المجتمعين في السهل، جنّ جنون الجراد وتمرمغت الأوروخس في التراب وامتلأ عنان السماء بالأتربة.

"يا لهم من حيوانات" قال القائد روجو في سرّه بعد مشاهدته لما يهين قرونه عازمًا أمره على الرحيل. "لا بد من أن أرحل" أضاف في سرّه باحثًا عن درب ما يسلكه، ووقتها لمع أمامه جبل ذو قمة بيضاء أثار فضوله فانطلق صوبه.

تابع روجو صعود الجبل - المعروف باسم جبل الشيخ - حتى وصل قمته، ليشعر من فوقها بأنه لم يكتفِ من الصعود بعد، فما كان منه إلّا أن قفز قفزة عظيمة صوب السماء واختفى!

هذا ما حدث على قمّة الجبل البيضاء، أما في السهل، وبعد رحيل الجراد عنه، نهضت الثيران لتنتظر في مكانها قائدها المتجبّر روجو، انتظروه طويلًا طويلًا، وما زالوا هناك ينتظرون! وبذلك تسبب جبروت ثور واحد بانقراض جنس كامل كان يدعى يومًا ما بالأوروخس.

وللأساطير بقيّة ..

1. الغلاف
2. 2
3. السَيّد بْـــراغ
4. إلى لارا إبراهيـــم
5. المشهد الأول
6. المشهد الثاني
7. المشهد الثالث
8. المشهد الرابع
9. المشهد الخامس
10. المشهد السادس
11. المشهد السابع
12. المشهد الثامن
13. المشهد التاسع
14. المشهد العاشر
15. أسطورة فراشة المورفو مينيلوس وشجرة الكولهمة
16. أسطورة ثور الأوروخس وهضبة الجولان